أحجار في قارعة الطريق

سعد بن عبد الله الغريبي

أحجار فى قارعة الطريق

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر
القاهرة - ش الشيخ معروف من شارع
شمبليون عمارة ج-وسط البلد
تليفون: 20225743534+
البريد الإلكترونى: arweqhhhh@gmail.com
arweqhhhh@outlook.com
رقم الإيداع: 2014/222
الترقيم الدولى: ISBN:000000000000

الطبعة الاولى
2014

سعد بن عبد الله الغريبي

أحجار في قارعة الطريق

رواية

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

سعد عبدالله الغريبي 1435هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغريبي ، سعد عبدالله

أحجار في قارعة الطريق /سعد عبدالله الغريبي _ الرياض،1435 مـ

ص1..سم

ردمك:978-603-01-4429-7

1-القصص العربية -السعودية

ديوي:813039531 1435/2276

رقم الإيداع: 1435/2276

ردمك:978-603-01-4429-7

محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي مؤسسة أروقة وتوجهها؛
بل يعبر عن رأي المؤلف وتوجهه

إهداء

إلى من يؤلمهم رؤية الأحجار تعيق الطريق،
ويشفقون على من يتعثرون فيها، فيعملون بجد لإزالتها
أهدي هذه الرواية!

تنويه:

قد تتشابه – أو ربما تتوافق – أحداث هذه الرواية أو بعض أحداثها مع أحداث أو مواقف مر بها الكثير والكثيرات، لكن المؤلف لم يضع في ذهنه أي حكاية لأي منهم أو منهن.

أحجار في قارعة الطريق

(1)

تمضي عجلة الليل مسرعة في اتجاه الصباح، والحفل مـــازال مشتعلا.. المكان مهيأ كأحسن ما تكون التهيئـــة، فأينمـــا اتجهـــت ببصرك ستدهشك (الديكورات) التي توحي بالفخامـــة والعظمـــة، والمقاعد الوثيرة التي انتشرت في أنحاء المكان وقد ســـلطت عليهـــا الأضواء الخافتة التي تشبه نجوم السماء، في حين ســـلطت الأضـــواء البراقة والملونة والمتموجة على حلبة الرقص.. مَن يلقِ نظـــرة عـــابرة على المكان يحسب أنه في داخل أحد الملاهي الليليـــة، وربمـــا ظـــن المناسبة احتفالا برأس السنة! ولا يصرفه عن هذا الظن إلا أن يتذكر أنه مازال في منتصف العام؛ في مطلع شهر يونيو، وفي مدينة الرياض، وأن الحضور من النساء؛ بل من الفتيات اللائي لم يتجاوزن العشرين إلا بسنتين أو ثلاثا.. إنهن مجموعة من الفتيات اللائي أعلنت الجامعة قبل عدة أيام تخرجهن، واتفقن على إقامة هذا الحفل الساهر في قاعة من القاعات المخصصة للأفراح انتشاء بهذه المناسبة العزيـــزة علـــى قلوبهن!..

احتفلن بتوديع أربع سنوات من الدراسة الجامعية، واستقبال القادم من الأيام التي لا يمكن لأحد أن يتنبأ بما تحمله مـــن ســـعادة وتعاسة، وما تخفيه من سرور وشقاء، وما ستفصح عنه مـــن آمـــال وآلام.

ومع أنهن كن ليلة البارحة مع عموم زميلاتهن الخريجات في حفل أقامته لهن الجامعة؛ إلا أنهن لم يرين في ذلك الحفل ما يشبع نهمهن، ويدخل السرور والبهجة عليهن. وكأنهن أقمن هذا الحفل ليزلن ما علق في نفوسهن من البؤس والملل الناشئ من رتابة ذلك الحفل، وكآبة خطاباته المنبرية، وطول مسيرته التي كان لزاما عليهن أن يقطعنها!!

من بين هذه الجموع بدت (نادية) بقامتها الفارعة، وبشرتها القمحية، وشعرها الأسود الفاحم، وابتسامتها التي لا تغيب، وثرثرتها التي لا تنقطع وهي تلاحق صديقاتها فلا تجد واحدة تستريح على مقعد إلا سحبتها من يديها لتنضم إلى الراقصات، وكأن هذه المقاعد لم تعد للجلوس!.. وفي وسط ساحة الرقص اختفت إيمان الفتاة السمراء ذات الجسم الممتلئ والقامة القصيرة والوجه المستدير ذي الغمازتين اللتين لا تبدوان إلا إذا ضحكت، لكنها لا تضحك إلا نادرا، ولا تتكلم إلا قليلا. ومن حين إلى حين تنضم إليهما عبير بوجهها المشرق، وعينيها العسليتين، وشعرها الذهبي، وبخطاها المتزنة حتى وهي على حلبة الرقص!..

وانتهى الحفل وبدأت الزميلات يودع بعضهن بعضا، في حين جلست الصديقات الحميمات على مقاعد متقابلة يلتقطن أنفاسهن، ويتذاكرن سنوات الدراسة الجامعية الأربع بكل ما فيها من كد وتعب، ولهو ولعب، ومواقف طريفة ومحزنة أصبحت اليوم في عداد الذكريات، ويرتبن كيف يلتقين في قابل الأيام!.

قالت نادية: ما أجمل سنوات الدراسة الجامعية! لا أظن أنه سيمر علينا في حياتنا أجمل منها مطلقا.. إنها سنوات توديع المراهقة وبداية خوض غمار الشباب.. إنها فترة التطلعات والأحلام والتخطيط للمستقبل الواعد.. صحيح أنه قد لا يكون واعدا؛ لكنه على الأقل فرصة للحلم، وهل أجمل من حلم؟!

وردت عبير: نحن الفتيات أقل قدرة على تنفيذ ما رسمنا من خطط، فأيُّ اعتراض من الأهل أو المجتمع يذهب بما خططنا له أدراج الرياح، ومن هنا يأتي افتتاننا بهذه المرحلة وولعنا في رسم صور مثالية لمستقبلنا!!

وتدخلت إيمان لتقول: كل ما في هذه المرحلة عزيز على كل فتاة: الأحلام، الآمال، التطلعات. أما الصداقات التي تنشأ خلال هذه الفترة فتبقى أقوى ثباتا ورسوخا على مر الأيام!

وعقبت عبير على كلام زميلتها: صدقتِ يا إيمان..أن تنشأ من بين آلاف الفتيات الجامعيات صداقة حميمة كصداقتنا نحن الثلاث؛ فهذا يعني أننا أكثر قبولا لبعضنا، وأشد احتمالا لخلافاتنا، وأعظم ائتمانا لأسرارنا.. أربع سنوات مرت منذ أن دخلنا الجامعة حتى تخرجنا منها كانت كفيلة بأن تجعل كل واحدة منا تعرف زميلتها حق المعرفة، وتعلم من سرها وعلنها ما لا يعرفه الأهلون والمقربون!.

ونهضن في خطى متثاقلة نحو الباب الخارجي وكأنهن مرغمات على مغادرة القاعة، ودعون الله أن تدوم صداقتهن على مر

الأيام. وفي هذه الأثناء فتحت إيمان حقيبتها اليدوية وناولـــت – في صمت – كلا من عبير ونادية بطاقتي زفاف!.. وكانت نادية الأسبق في فض مظروف الدعوة وقراءتها، وانحنت بقامتها قليلا حتى أصـــبح وجهها مقابلا تماما لوجه إيمان الذي اصطبغ بالحمرة حـــتى قـــارب السواد وهي تحدق فيه وتقول:

– آه منك يا الساكتة! عِرْس بدون مقدمات؟! لم تقولي لنا من قبـــل أنك قد خُطبتِ أو شبكتِ!!

وتقدمت إليها عبير تضمها وهي تقول:

= مبارك يا حبيبتي.. الله يوفقك إن شاء الله!

وانفرجت ابتسامة خفيفة من إيمان بدت على إثرها غمازتاها وهـــي تشكرهما على مشاعرهما، وتؤكد عليهما الحضور!

***

(2)

تجددت أفراح الصديقات مرة أخرى بعد أيام قلائل، فحضرت عبير ونادية حفل زفاف إيمان الذي أقيم في استراحة من الاستراحات المخصصة لمثل هذه المناسبات.. كان حفلا مختصرا جمع بين البساطة في المظاهر وقلة عدد الحاضرات، لكنه لم يمنع عبير ونادية بأن تعبرا عن سعادتهما بمشاركتهما صديقتهما أفراحها..

بعد انتهاء مراسم الزفاف اصطحبت عبير صديقتها نادية لإعادتها لمترلها في سيارتها الخاصة التي يقودها سائق العائلة الهندي الجنسية.. لم تصبر نادية كعادتها عن الثرثرة، وحاولت قدر الإمكان خفض صوتها حتى لا يصل حديثها إلى مسامع السائق الذي يتقن العربية بحكم طول إقامته لدى الأسرة؛ وإن تظاهر بخلاف ذلك!.. كانت إيمان وزفافها هو موضوع الحديث:

– أرأيتِ يا عبير هذه التي نقول عنها: (مسيكينة) وعلى نياتها؟! نحن اللواتي على نياتنا.

= الله يوفقها. هل غِرتِ منها؟

– لا.. لِمَ أغار؟ أغار من زواج (سكتم بكتم)؟! لا تعرفه ولا يعرفها. كل ما هنالك أن أمها قالت لها: "ما رأيك"؟ فأجابت: "الرأي ما ترين يا أمي"!

= لكني لا أرى فيه ما يعيبه ما شاء الله تبارك الله.. ثم ما يدريك إن كانت تعرفه من زمان، ونحن (يا غافل لك الله)! هل تظنين كل الناس مثلي ومثلك؟ ما بقى أحد ما عرف قصتنا.. الناس يا نادية لا يحكون لأحد عن أسرارهم مثلنا..

– يا الله!.. إن شاء الله نفرح مثلها!

= ادعي لها بالتوفيق إذن.

– الله يوفقها ويسعدها! أتحسبيني لم أفرح من أجلها؟ لا والله.. بل وفي غاية السعادة والبهجة، لكن المفاجأة أذهلتني.. نحن في الجامعة معا و لم تفتح يوما ما سيرة خطيب أو عريس، وأنا وأنتِ لم نترك شيئا لم نقله، و لم يحفزها ذلك على النطق بأية كلمة!

= لا تظلميها يا نادية. ربما لم يحصل الاتفاق بينهما إلا مؤخرا.. أنا ما حسدتها إلا على السفر والدراسة، وكندا بالذات!

– أحسدها على السفر. أما الدراسة فقد جعلتُ التخرج من الجامعة حدا فاصلا بيني وبينها!

وانتقل الحديث من العروس إلى أم العريس.. فقالت نادية:

– ألم تلاحظي أن أم العريس لم تترك واحدة من البنات إلا سألت عنها، وعن أهلها، وأخذت رقم هاتف أمها وحفظته في ذاكرة جوالها..

= ما ذا تريد منهن؟

– أظنها خطابة؟!

= أو عضوة في جمعية الرفق بالعوانس!!

و لم تقو نادية على إخفاء ضحكة مجلجلة لفتت انتباه السائق فجعلته يسلط عينيه على المرآة التي أمامه، ممـــا اضـــطرهما لالتـــزام الصمت وكتم الضحك حتى وصلت ناديـــة إلى منزلهـــا، فودعـــت صديقتها، وواصل السائق مشواره إلى منزل عبير..

***

(3)

العريس صالح معيد في كلية الهندسة، ومرشح للابتعاث لإكمال الماجستير والدكتوراة في كندا. حرصت أمه على تزويجه قبل بعثته واصطحاب زوجته معه خوفا عليه من (بنات إبليس) كما تسمي بنات الخارج! ولم تبذل أم صالح مجهودا كبيرا في البحث عن زوجة ملائمة لابنها؛ فهي بحكم عملها (خطّابة) تحتفظ في ذاكرتها بعدد وافر من ملفات الفتيات اللواتي يرغب أهلهن في تزويجهن، والتي كانت إيمان واحدة منهن! درست مع ابنها ملف إيمان وسرعان ما تمت المراسم المعتادة من خطبة ورؤية شرعية ثم عقد القران فالزفاف!

كانت فرحة أم صالح بزفاف ابنها البكر لا توصف، فقد تعبت في سبيل تربيته وتربية أشقائه وشقيقاته منذ وفاة والده قبل ثلاث سنوات، فالراتب التقاعدي الذي تتقاضاه لقاء خدمة زوجها في الحكومة يكاد لا يكفي الحاجات الأساسية، ولولا ما تحصل عليه من أجر التوفيق بين طالبي الحلال من فترة لأخرى لما استطاعت تغطية بعض المصروفات الاستثنائية التي تتجدد كل يوم في مجتمع يزداد فيه التباهي ويقل فيه التراحم!..

حاول صالح مرارا ثني أمه عن العمل، وألح عليها لترك مهنة الخطابة بعد أن أصبح موظفا براتب مجز. قال وهو يودع أمه قبل خروجه للمطار بصحبة عروسه:

– لم تدخري شيئا من وقتك وجهدك يا أمي.. قدمتِ لنا كل ما في استطاعتك من صحتك ومالك منذ أن توفي أبي يرحمه الله، وحرصتِ على أن نجد ونجتهد ونشق طريقنا في الحياة، وهأنذا والحمد لله أستعد للابتعاث، وبعد سنوات أرجع – إن شاء الله – ومعي شهادة أرفع رأسك بها قبل رأسي، وهؤلاء إخوتي يسيرون على الخط نفسه الذي رسمتِه لنا.. ربيتِنا يا أمي تربية يحسدك عليها صاحبات أعلى الشهادات.. يكفي يا أمي.. أرجوكِ استريحي من التعب ونحن كلنا في خدمتك.

= بارك الله فيك يا ولدي وأصلحك، ولكن ما دام الله رزقني الصحة والعافية فلِمَ لا أعمل؟ أتريد أن أقعد في البيت للأمراض والسمنة؟.. ثم أنت يا ولدي بذلت ما في وسعك.. وفوق ذلك جلبت لي خادمة وسائقا.. أرحتني أراحك الله!

قبَّل الابن رأس أمه في حنو، وقال لها:

– ليس لي والله في هذه الدنيا مطلب سوى راحتك يا أمي!

***

والحقيقة أن وجود السائق والخادمة اللذين أحضرهما ابنها صالح قبل مغادرته المملكة كانا عاملين مهمين في سبيل إيجاد وقت فراغ كبير لديها، فالخادمة تقوم بالعبء الأكبر من أعمال البيت،

والسائق يسهل لها عملية الانتقال متى احتاجت لذلك. إضافة إلى أن هذه المهنة لا تأخذ منها الكثير من الوقت أو الجهد، فدائرة عملها لا تخرج كثيرا عن جاراتها ومعارفهن، وعلاقاتها بجاراتها وثيقة، وهي تتبادل معهن الزيارات فتتعرف بوساطتهن على الأوضاع الاجتماعية لهن ولصديقاتهن ومعارفهن؛ وهي لا ينقصها مهارة تكوين العلاقات مع الناس ولا تنميق الكلام ولا القدرة على الإقناع، ولا تتحرج من الكذب لو تطلب الموقف شيئا منه! وهي فضلا عن ذلك تجد في هذه المهنة المتعة والتسلية..

وعلى الرغم من أن أم صالح معروفة بمهنتها بين الأهل والأصدقاء والجيران؛ فإنها لا تجرؤ على الإعلان عن نفسها بوصفها خاطبة – وبعبارة أكثر دقة لا تريد أن تعلن عن نفسها – فهي حريصة على أن تقول لكل باحث أو باحثة عن النصف الآخر إنها تؤدي هذه الخدمة بحكم ما بينهما من صداقة أو جيرة، وأنها لا تبتغي سوى وجه الله؛ وذلك أدعى لأن تحظى بالمزيد من الثقة لدى الباحثين والباحثات عن النصف الآخر.

***

(4)

كانت نهاية الإجازة الصيفية وبداية العام الدراسي خـــلال الأربع السنوات الماضية تمثل حدثا ظريفا بالنسبة للفتيات الـــثلاث؛ يترقبنه بكل لهفة، فبعد الإجازة يعدن محملات بالحكايا والـــذكريات والشوق للجامعة وللزميلات. لكن الإجازة هذا العام تنتـــهي وقـــد اتخذت كل منهن مسارا مختلفا. فإيمان سافرت بعد زواجها مباشـــرة مع عريسها، وعبير تعينت معيدة في الجامعة، وانشـــغلت بمنصـــبها الجديد. أما نادية فبعد أن أودعت ملفها الأخضر وزارة الخدمة المدنية في انتظار وظيفة حكومية؛ لا زالت تلقي بملف أخضر آخر كل يوم في إحدى المدارس الأهلية بالرياض، فتَعِدُها المدرسة بالاتصال بها مع بداية الدراسة حين يتبين الاحتياج إلى معلمات!

كان هذا جزءا مما دار بين الصديقتين عبير ونادية أثنـــاء لقائهما في أحد المطاعم في مجمع تسويقي كبير بمدينة الريـــاض، و لم ينسيا زميلتهما إيمان التي اختتمت العام الدراسي بزواجها المفـــاجئ ومرافقتها لزوجها صالح:

– نادية.. والله افتقدنا إيمان واشتقنا لها. أما لديك أخبار عنها؟

=أبدا.

– أما اتصلتِ بها منذ أن سافرت؟!

= كيف أتصل بها وهي لم تترك لنا عنوانا، ولا رقم هاتف؟!

– يبدو أنها انشغلت بالزواج والبعثة!

ليس من الصعب أن تعرف إن كانت الحالة النفسية لنادية على ما يرام، أم أن شيئا ما نغص عليها، فمجرد اختفاء الابتسامة من شفتيها، أو التزامها الصمت ولو لدقائق يعني أن شيئا ما قد كدر خاطرها. وعبير الذكية اللماحة لا يخفى عليها هذا الأمر مهما حاولت نادية أن تظهر بغير ذلك.. قالت لها عبير:

– لا أراك سعيدة اليوم كالمعتاد! ما ذا لديك؟

= لا.. أبدا.

– ممدوح؟

= نعم!

– ما به؟ ما عمل هذه المرة؟

= تزوج!

– كيف؟ ومتى؟

= والله لا أدري يا عبير. قرأت الخبر منذ يومين في الجريدة..

– غريب والله.. أين وعده لك؟ ألم تقولي في آخر مرة تحدثتِ معه إنه يرتب الأمور للتقدم إلى أبيك؟!

= هذا الزمن ما فيه غريب، والمفاجآت ما لها حد.. والرجال ما لهم أمان!

– يعوضك الله خيرا منه.. لكن كيف حصل هذا؟

وردت نادية في تبَرُّم:

= يا عبير! شاب طائش تعرفت عليه من اتصالات هاتفية ورسائل جوال. ما ذا تتوقعين أن تكون نهايته؟

– أنتِ كنتِ مخطئة منذ البداية. كيف اقتنعتِ به وتماديتِ في علاقتك به؟

= أَقسمَ لي أنه لا ينوي إلا الخير، فطلبت منه أن يتقدم لخطبتي إن كان جادا وإلا فإني سأغلق في وجهه أي اتصال! ووعدني بأن يتم ذلك في أقرب وقت عندما يتوظف، فقد تخرج من الجامعة مؤخرا، وأُدرج اسمه في قائمة انتظار التوظيف بوزارة الخدمة المدنية. وقال لي: إنه لن ينتظر وظيفة الحكومة، ولذا فإنه في كل صباح يطرق باب إحدى مؤسسات القطاع الخاص أملا في العثور على أية وظيفة، وسيقبل أول فرصة عمل تعرض عليه؛ لا لشيء إلا ليكون مهيأ للتقدم إلى والدي، فمن غير المعقول أن يتقدم وهو عاطل!

وبدا على نادية أنها متأثرة من الموقف بعكس ما حاولت أن تخفيه في بداية لقائها بعبير.. امتصت جرعة من كأس عصير (الكوكتيل)، وواصلت حديثها:

= وما زال يتصل بي وأنا أتلكأ في الرد عليه، حتى اتخذ موقفا مغايرا.. صار يتعمد التأخر في الاتصال بي لعدة أيام حتى ينفد صبري فأكون أنا البادئة، فأتصل به وكأني أطمئن على حاله ليس إلا، وكأن أشواقي لم تكن هي من يحركني!!

ثم توقفت نادية عن الاستمرار في هذا الحديث المتدفق حتى تتجنب الاعتراف لعبير بحقيقة علاقتها به وتماديها في ذلك، وأخفت

عنها أنها ضعفت أمام إلحاحه وخرجت معه أكثر من مرة.. كتمت أمر هذه اللقاءات عن زميلتها لأنها تعرف صرامتها في هذه الأمور..

– ثم ماذا حصل؟

= مرت الأيام من جديد وأنا أنتظر اتصاله، وقررت أن أدوس على قلبي ولا أتصل به مطلقا حتى أجبر الفارس على أن يمتطي حصانه الأبيض قادما إليّ!

– كنت سأقول لك منذ مدة اتركي عنك هذه العلاقات المشبوهة.. الشباب يا نادية لا يتزوجون ممن كانت لهم معهن أدنى علاقة.. ليت فتياتنا يعلمن هذه الحقيقة جيدا!!

***

(5)

في هدأة الليل تُعِد نادية دروسها التي ستلقيها لتلميذاتها صباح الغد، وتتابع في الوقت نفسه مسلسلا خليجيا رومانسيا.. تنظر في الرقم الظاهر على شاشة هاتفها الجوال فلا تعرف المتصل، وتتردد في إجابته. لكن الفضول يدفعها لمعرفته، فترفع الهاتف إلى أذنها:

- السلام عليكم.

= عليكم السلام ورحمة الله.

— نادية؟..

= أهلا ومرحبا.. من المتحدث؟

- أم صالح. خالة صديقتك إيمان!

تذكرت نادية على الفور حديثها مع صديقتها عبير وهما عائدتان من زفاف إيمان وجملتها التي انفجرت على إثرها ضاحكة "عضوة في جمعية الرفق بالعوانس"! فحاولت أن تخفي ضحكتها التي عاودتها الآن خشية أن تفسرها أم صالح تفسيرا سيئا، وتمنت أن تكون عبير إلى جانبها في هذه اللحظة!

= أهلا وسهلا..حياك الله يا أم صالح.. بشريني عن العريسين؟ وأخبارهما؟ عسى أن يكونا بخير؟

– أبشرك أنهما بخير. وإيمان تسلم عليك.. هي التي أعطـــتني رقـــم هاتفك.. أنتِ كيف حالك؟ وكيف حال والدتك؟

= كلنا بخير والحمد لله وبأحسن حال.. الوالدة متوفية منذ أن كنت طفلة.. لعلك تقصدين خالتي؛ زوجة أبي!

– التي كانت معك ليلة زواج صالح؟ كنت أظنها والدتك.. سامحيني يا ابنتي.. الله يرحمها..

= آمين. جزاك الله خيرا..

– ماذا تعملين الآن؟ هل اشتغلتِ؟

= أدرِّس في مدرسة أهلية..

– الله يوفقك يا بنتي.. اسمعي.. لا أطيل عليك.. عندي لـــك ابـــن حلال موظف وأحواله زينة وأهله أجاويد و..

وقاطعتها نادية:

= لكن يا أم صالح المفروض أن تكلمي خالتي..

– أدري.. سأتحدث مع خالتك إن شاء الله. لكن أردت أن تعـــرفي أني ما بحثت لك ولا اتصلت بك إلا لأنك رفيقة إيمان، ومعزّتك من معزّتها!.. أنا لست خطابة، ولا أرجو إلا ما عند الله!..

= الله يحفظ لك عيالك يا أم صالح..

= آسفة يا ابنتي إن كنت أزعجتك.. تصبحين على خير..

– لا أبدا ما أزعجتني. بل استأنست إذ سمعت صوتك، وطمأنتني عن إيمان وصالح!

***

بعد هذه المكالمة بعدة أشهر هاهي نادية تستعد لحفل زفافها.. كل صديقاتها – خاصة عبير – غير مصدقات أن نادية تتخذ قرارها بهذه السرعة وهي التي ترفض الزواج بالطريقة التقليدية.. هل كان إخفاقها في التجربة السابقة سببا في حسم الأمر هذه المرة؟ وهل من دور لأم صالح في الموضوع؟! نادية إذا سُئلت تجيب إجابات زئبقية، وأم صالح ترد مستنكرة:

– أنا خطابة؟!

زفاف نادية سيكون فرصة للقاء الفتيات الثلاث من جديد، وسيعدن ذكريات الدراسة وأحاديث الليالي الماضيات؛ خاصة أن إيمان عادت لتوها لتمضية الإجازة الصيفية في المملكة.. هذا ما قالته نادية لعبير وهي تحدثها بالهاتف وتُعْلِمها بموعد زفافها وتؤكد على حضورها.

لكن عبير خذلت زميلتيها فلم تحضر حفل الزفاف، وهذا ما شغل إيمان، وأثر على بشاشة نادية العفوية وأخفى ابتسامتها التي نادرا ما تغيب!

***

(6)

عادت نادية من شهر العسل. وجاءت عبير الصديقة الوفية في زيارة خاصة لها تهنئها بزواجها، وتطمئن على أمورها وتعتذر عن عدم حضورها حفل زفافها، وتشرح لها الظرف الذي منعها من الحضور!

قالت لها:

– تعرفين أنني بعد ما حصلت على الثانوية العامة جاء عمي يبارك لي ويخطبني لولده..

= أجل أعرف! قلتِ لي قبلها..

– قال له أبي: البنات في أيامنا هذه لا يتزوجن بعد الثانوية.. إذا ألهت الجامعة فلكل حادث حديث!

= جميل.. وتخرجتِ من الجامعة؟!

– وجاء عمي يطالب أبي بالوفاء بوعده..

= وأنتِ أما لك دور؟! ألا يسألك أحد عن رأيك؟!

– أبي كان محرجا ولا يدري ماذا يفعل ولا بماذا يرد! لكني خلصته من الإحراج.. قلت له: "قل: عبير رفضت"!

ليس فيه يا نادية أية صفة يمكن أن تشجع الفتاة على قبوله.. حصل على الثانوية العامة وصار عاطلا.. لا وظيفة ولا دراسة. وأخذه أبوه

عنده في مؤسسته، وصار يسافر إلى الخارج دائما بحجة تخليص أشغال والده وهو في الحقيقة (صايع)! كيف يدير أعمال أبيه وهو لا دراسة ولا خبرة ولا لغة؟!

= وماذا بعد؟

– غضب عمي على أبي يوم أن قال له إن عبير ما قبلت بابن عمها.. وزوجوا ولدهم بعد بضعة أشهر.. ودَعَونا.. حضرت أنا وأهلي.. حسبنا أنهم اقتنعوا بالأمر وانتهى الخلاف، لكن حقدهم علينا كان واضحا، وكأنهم دعونا ليقهرونا أو يهينونا!

وتوقفت عبير لالتقاط أنفاسها، فوجدتها نادية فرصة للمداخلة:

= والله ما أُصدِّق أن هذا يحصل بين أخوين.. الزواج قسمة ونصيب.. ليس غصبا!!

وتأوهت عبير قبل أن تواصل:

– والله يا نادية ليس من باب العناد، ولو أن في ولد عمي بعض الذي أبحث عنه في الرجال لوافقت إكراما لعمي، لأني أعرف أنه لا يوجد رجل كامل. لكن هذا ليس فيه خصلة واحدة تجعلني أقبل به.. ليس فيه إلا إنه غني ويلعب بالمال هو وأهله، ويعتقدون أن (الفلوس) تغطي كل عيب!

ولم تتمالك نادية نفسها من الضحك؛ على الرغم من أن عبير تتحدث عن مأساة، لأن نادية اعتادت أن تأخذ الدنيا ببساطة! فقالت :

= الله يهديهم.. صارت حكايتك فيلما هنديا يا عبير! ما علاقة هذه القصة بغيابك عن حفل زفافي؟

– تمهلي.. سأقول لك.. تعرفين أني أنهيت سنة الإعادة في الجامعة، وبالمناسبة رشحت للدراسة في بريطانيا، وأنهيت أوراقي كلها وبعد أسبوعين إن شاء الله أسافر أنا والوالد!

= واو.. الله يبشرك بالخير.. تستاهلين كل خير..

– شكرا لك.. عمي بعد زواج ولده هجر أبي و لم يسأل عنه، وقال أبي: "كما يريد.. يوما ما سيرجع إلى عقله"!

لكن المشكلة تجددت يوم أن عرف عن بعثتي لبريطانيا وأني أكمل أوراقي.. جاء لوالدي طالبا منه أن يمنعني من السفر ونشبت بينهما معركة كلامية.. أتدرين متى؟ ليلة زفافك!.. كنت عند (الكوافيرة) وعندما رجعت، ودخلت البيت سمعت ضجتهم.. تكدر خاطري، و لم أكن في حالة تسمح لي باستقبال ليلة سعيدة!

= ولماذا يحشر عمك نفسه في موضوع يخصك ويخص أبيك؟!

– أبي يحترمه لأنه أخوه الأكبر، ويحاول أن تسير الأمور بطريقة: "سددوا وقاربوا"، ولا يريد أن يغضب أحد منه أيا كان.. لكنه لما رأى إصراره وتدخله فيما لا يعنيه خرج أبي عن طوره، وأوقفه عند حده، وقال له بصرامة لم أعهدها فيه: "لا شأن لك بي ولا بأولادي"!

***

(7)

كانت عبير مترددة في قبول البعثة للمملكة المتحدة؛ لا سيما أن والدها الذي أثرت فيه عوامل السن لم يكن متحمسا لابتعاثها، وسيضطر لمرافقتها طيلة سني دراستها والاغتراب عن أسرته حسب شروط البعثة، وهو الذي لم يعتد الغربة ولا الابتعاد عن أسرته التي يحبها حبا جما، ولا يعرف من اللغة الإنجليزية ما يعينه على الحياة هناك. لكنها علمت من زميلات لها مبتعثات أن (المَحْرَم) يمكن أن يعود بعد انتظام ابنته في الدراسة، وليس بالضرورة البقاء معها طوال الوقت. وزاد من حماستها للبعثة، ومغادرة هذا المجتمع المعوق؛ تدخل عمها في شؤون حياتها وإهانته أبيها!..

حاولت إقناع والدها بأن الفرصة التي تتاح لها اليوم قد لا تتوفر لها في الغد، وأن إقامته معها في الغربة لن تطول، فبعد أن تتعرف على البيئة المحيطة بها وتألف المجتمع الجديد يمكنه العودة إلى أسرته، إلا إن طاب له المقام فمرحبا به؛ خاصة أنه قد تقاعد من العمل في العام الماضي.

ووافق الأب على سفره مع ابنته معلنا لأخيه أنه لم يعبأ باعتراضه وغضبه!

وما توقعته عبير وما خططت له تحقق؛ فقد سافرت بصحبة والدها إلى مدينة (وندسور) في بريطانيا لدراسة اللغة، و لم يكد يمر شهران إلا وقد وجد والدها أنها هي التي تعوله لا هو، وهي التي تدله على الأماكن وترشده كيف يقضي أوقاته، وهي التي تترجم له حتى يستطيع التعامل والتفاعل مع الآخرين. لقد أحس أنه أصبح عبئا على ابنته لا معينا لها، وأن المخاوف التي كانت تخامره هو وأسرته لا وجود لها ألبتة، فعاد إلى أسرته هادئ البال مرتاح الضمير، و ما أن انتهى العام الدراسي – وقد أنهت عبير اللغة الإنجليزية وبدأت مراسلاتها لبعض الجامعات بغية مواصلة دراستها العليا فيها – حتى عادت لقضاء إجازتها الصيفية بين أهلها وذويها.

وصلت إلى مطار الملك خالد الدولي لكنها ما إن دلفت إلى الصالة الخارجية للمطار والتقت بأخيها فيصل ذي الخمسة عشر ربيعا الذي كان في استقبالها بصحبة سائق العائلة – إلا أصابها الهلع وعلمت أن أمر سوء قد وقع في أثناء غيابها، فلم يكن أيٌّ من والديها في استقبالها كما توقعت، كما بدا الوجوم واضحا في ملامح شقيقها.. حين ركبت السيارة مع أخيها سألته عن أبيها وعن أمها، وحاول أن يتهرب من السؤال لحين وصولهما إلى البيت، لكنه لم يستطع المماطلة أكثر فأخبرها بالحقيقة المرة: لقد توفي والدهما قبل شهر من الآن!

دخلت عبير منزلها بعد أن دخلت قبل ذلك في نوبة من البكاء، واستقبلتها أمها الرؤوم بمزيج من دموع الفرح ودموع

الحزن.. وسط الدموع التي لم تتوقف من الطرفين سمعت عبير من أمها قصة وفاة أبيها بنوبة مفاجئة، وعاتبت أمها وإخوتها كيف أخفوا عنها مثل هذا الخبر، فكان الجواب أن والدتها حرصت على عدم التنغيص عليها وعرقلة مسيرة دراستها؛ خاصة أنه توفي في فترة تأديتها الاختبارات النهائية.. تذكرت أنها في الشهر الأخير عندما تتصل بأهلها كعادتها كل أسبوع وتسأل عن أبيها تجاب بأنه نائم أو أنه خارج البيت أو أنه ذهب للعمرة.. كيف لم يخطر ببالها أن أمر سوء قد أصابه وهي التي تزعم أن لها حسا مرهفا وإحساسا متيقظا؟! كانت طعنة نجلاء وجهت إلى خاصرتها؛ ففقد والدها ليس بالأمر الهين خاصة أنه من فتح لها الطريق لتحقيق حلمها، وجاهد أخاه حتى لا يقف عائقا في سبيل تحقيق أمنياتها وطموحاتها. وهكذا كانت عودة عبير إلى أهلها نبشا عن موطن الأسى وبعثا لأحزان كادت تتوارى..

***

(8)

عادت عبير إلى المملكة البريطانية بعد انتهاء إجازتها لتنهي إجراءات تسجيل دراستها للماجستير في إحدى الجامعات التي راسلتها من قبل. عادت مكسورة الوجدان من فقد والدها لكنها بيَّتت النية على أن تظل قريبة منه بتحقيق ما كان يأمله فيها، وأن تكون وفية له بأن لا تقترف ما يزعجه، وأن تراقبه في تصرفاتها كما لو كان ماثلا أمامها.. بقيت في لندن عدة أيام تراجع الملحقية الثقافية للحصول على موافقتها على الجامعة التي ستسجل فيها، ثم غادرتها إلى (وندسور) لإنهاء متعلقاتها بها وأخذ أمتعتها من الغرفة التي كانت تستأجرها..

أمضت أيامها القليلة والأخيرة في وندسور بزيارة الأماكن التي قضت فيها وقتا ممتعا بصحبة والدها لتتذكر اللحظات الجميلة التي قضتها في صحبته في بداية العام الدراسي الماضي والمواقف الطريفة التي حصلت لهما بسبب عدم إتقانهما اللغة الإنجليزية.. تذهب مساء كل يوم لنهر التايمز وتستمتع – كما كان والدها يستمتع – بمنظر الطيور المائية وهي تسبح على صفحة النهر، أو تذهب لمطعمٍ مقابل قلعة وندسور الملكية لتتناول العشاء لوحدها كما

كانت تتناوله مع والدها، لكنها إذا تذكرته فسرعان ما تنهمر عيناها بالدموع!

كم أحبت هذه المدينة الوادعة كما أحبها والـــدها، لكـــن الأماكن لا جمال لها في غياب من نحبهم ونألفهم.. لقد ضاقت عليها وندسور بما رحبت، وأصبحت تستعجل الخروج منها وهـــي الـــتي كانت تتمنى أن تنهي دراستها فيها، فلم يعد البقاء فيها مطاقا وهـــي ترى في كل رصيف أثر أقدام أبيها، وتسمع وقع خطواته، وتعطـــر ذكراه كل بقعة فيها. ولذلك كان من حسن حظها أن يكون قبولها للدراسة العليا في مكان ناء عن وندسور.. في (كارديف) عاصـــمة (ويلز) غرب المملكة المتحدة!

***

اليوم هو الأحد.. وفي يوم الأحد – ومثله يوم الســـبت – تعيش مدينة وندسور بصورة مغايرة لما هي عليه أيام الأسبوع. ففـــي أيام الأسبوع يسيطر عليها الهدوء التام، لكن ما إن تبدأ إجازة نهايـــة الأسبوع إلا وينقلب هذا الهدوء رأسا على عقب؛ فالسياح يملـــؤون طرقات المدينة – لا سيما القلعة وما يحيط بها – والجنود يستعرضون أمام القلعة الملكية على أصوات الطبول وآلات الـــنفخ الموســـيقية، والمَلِكة – ومعها بعض أفراد أسرتها – غالبا ما يقضون نهاية الأسبوع في هذا المكان.

أنهت عبير استعداداتها لمغادرة وندسور مغادرة نهائية، و لم يبق أمامها سوى ساعتين من الزمن فضلت أن تقضيهما في المطعم الـــذي

كثيرا ما ترددت عليه مع والدها. كان المطعم خاليا مع انتصاف النهار، فاختارت مقعدها في مواجهة القلعة الشامخة، وسرح بها الخيال يوم أن كانت تجلس مع والدها في المكان ذاته؛ فتحدثه عن القلعة وتاريخها وفنها المعماري، فلم تشعر بضجيج الفوج السياحي الذي احتل جميع المقاعد الخالية، ولا بالنادلة وهي تستأذنها في أن يجلس سائح كان يقف إلى جوارها على الكرسي المقابل لها مشاركا إياها منضدتها.. اعتذرت بلباقة منهما وجلس السائح، ونظرت إلى الساعة في يدها فشكرت النادلة على أن أفاقتها من هذه الغيبوبة لتلحق بالقطار!

استقلت القطار إلى (سلاو) ثم إلى (بادنجتون) في العاصمة البريطانية، ثم القطار السريع إلى (كارديف) محطتها النهائية التي وصلتها وقد حل المساء، واتجهت من فورها لتبيت في أحد الفنادق الصغيرة القريبة من محطة القطارات، وفي الصباح الباكر غادرته إلى الجامعة لتنهي تسجيلها، وتتسلم غرفتها في مساكن الجامعة..

***

(9)

بعد وفاة أبي فيصل شهد أخوه أبو حمود وأولاده الصلاة عليه ودفنه، وجلسوا للعزاء في منزل المرحوم إلى جانب ابنه فيصل. ثلاثة أيام يستقبلون المعزين من الأهل والجيران والأصدقاء؛ أظهر أبو حمود خلالها ألوانا من السخاء والمودة لأخيه وأبناء أخيه، وبدا لجميع الذين عرفوا خلاف الشقيقين أنه قد نسي كل خصام وبغضاء..

وفور عودة عبير من بريطانيا سارع عمها وأسرته لتقديم واجب العزاء والمواساة لها، وطيَّب خاطرها وطمأنها على أنه سيكون لها ولأشقائها بمثابة أبيها.. وشكرته بلسان لا يكاد يبين، وودت لو استطاعت أن ترفع رأسها لتتبين مدى الصدق في عينيه، لكنها لم تستطع خجلا واحتراما وخوفا!!

انتظر أبو حمود عودة عبير إلى بريطانيا بعد انتهاء إجازتها، ليقنع والدتها بأن يتولى مسؤولية رعاية أبناء أخيه فيكون وصيا على القصر منهم، ووليا على النساء، ووكيلا عن البالغين. وتطوع بإنهاء إجراءات حصر ورثة أخيه، واستخراج الصكوك اللازمة لذلك؛ لا سيما أن ابن أخيه الوحيد فيصل لم يتجاوز الخامسة عشرة..

جلس أمام القاضي في المحكمة المختصة وخلفه أم فيصل وابنها، واستمع القاضي إلى أقوال المنهين والشهود، واطلع على

كافة الأوراق المطلوبة.. سأل القاضي أم فيصل إن كانت قادرة على ولاية أبنائها وبناتها القُصَّر، فلما أجابت بالإيجاب، أخبرها أنه سيجعل لها الولاية عليهم، وأوصاها بتقوى الله سبحانه وتعالى والحرص على ما ينفعهم في أمر دينهم ودنياهم، وأضاف: إنه سيعطيها حق توكيل من تشاء إن رأت حاجة لذلك!

هنا حاول العم ثني القاضي عن قراره متظاهرا بالحدب على أبناء أخيه وبناته، ومتذرعا بأنه أكثر مقدرة وتفرغا من أمهم، لكن القاضي شكره على حرصه وقال له إنه قد جعل لها حق توكيل الغير، فمتى ما رأت أنها غير قادرة أو غير مهيأة فبإمكانها توكيله أو توكيل من تراه.. وغادر الجميع مكتب القاضي وأبو حمود يحاول إخفاء حرصه على تولي أولاد أخيه، ويسأل الله أن يعين زوجة أخيه على المهمة الشاقة، مؤجلا طلب توكيله إلى وقت آخر!

اتصلت أم فيصل بابنتها عبير تطمئن على أحوالها، وتعلمها بما استجد من أمور وتبلغها بما أهوه من إجراءات، وحكت لها ما رأته من حنو عمها أبي حمود، وحرصه على أولاد أخيه.. سُرَّت عبير كثيرا حين أعلمتها بإقامتها ولية على أبنائها وبناتها القُصَّر، وحمدت الله أن أوجد من القضاة من يحكم بالشرع الحنيف؛ الذي يولي المرأة الكثير من المهام ويمنحها المزيد من الحقوق التي لا يحجبها إلا جهل الناس بأمور دينهم وتسلط بعض الرجال وجورهم على حقوق النساء!

لكن عبير امتقع لونها وتغير صوتها وعلا حين أخبرتها والـــدتها بـــأن عمها يرغب في أن توكّله.. قالت لأمها بحزم:

– انتبهي يا أمي.. لا توكليه.. أبي – رحمه الله – أدرى مني ومنـــك حين قال له: "لا شأن لك بي ولا بأولادي"! إن صارت لـــه علينـــا ولاية فأول ما سيفعله هو قطع بعثتي، وتزويجي بمن يريد!! وإن كنتِ مضطرة لتوكيل أحد فوكّلي واحدا من أخوالي.

وانقبضت أم فيصل وهي تسمع هذا الكلام مـــن ابنتـــها، وتذكرت خلاف الشقيقين، واستحضرت الوداعة التي أظهرها فجأة أبو حمود هذه الأيام!..

***

(10)

أقبلت عبير على دراستها باهتمام شديد وحرص دائب، فقد تجاوزت أزمة وفاة أبيها، وتجاوزت صدمة ابتعادها عن مدينة وندسور واعتيادها عليها. أحبت عبير كارديف منذ أن وطئتها أقدامها، ورأت فيها خير بديل لوندسور؛ كيف لا وهي تشبهها في هدوئها وحدائقها وحتى في قلعتها، لكنها تمتاز عنها بخليجها الساحر!

واستغلالا لكل وقت فراغ يمكن أن يوحش غربتها انخرطت في أنشطة الجامعة وفي لجانها وجمعياتها. ولأنها تخصصت في التربية الأسرية فقد وجدت أن خير ما تقوم به لشغل فراغها وزيادة تأهيلها هو الانضمام للجمعيات الخيرية والأسرية. وقد أصبحت صديقة لمكتبة الجامعة ومتاحف المدينة، إلى جانب صداقتها الدائمة لحدائقها الغناء وخليجها الباهر.

وما هي إلا ثلاث سنوات حتى حصلت عبير على شهادة الماجستير، وبدأت من فورها وضع خطة رسالة الدكتوراة وتسجيلها؛ مما اضطرها لتأجيل عودتها للمملكة إلى ما بعد انقضاء الصيف. ففكرت في استدعاء أخيها فيصل – الذي اجتاز السنة الأولى في كلية إدارة الأعمال بالرياض – إلى جانبها ليزداد إلماما باللغة الإنجليزية خلال فترة الصيف!.

على أحد الكراسي الطويلة المعدة لجلوس المتنزهين في حديقة الجامعة كانت عبير تجلس مع أخيها تتفيأ ظلال بعض الأشجار المعمرة فتتقي شمس يوليو التي يحرص المواطنون على التعرض لها، وتشرح له بعض قواعد اللغة الإنجليزية.. لاحظت أن الناس كلهم يتوجهون صوب شاشات التلفاز في المطعم الذي يحتل جزءا من الحديقة، والأصوات تعلو وتتداخل، واتضح أن الناس انقسموا إلى فريقين؛ فريق يهاجم، وآخر يدافع! طلبت من أخيها البقاء في مكانه ريثما تستطلع الأمر وتعود إليه.. وحين اقتربت علمت من التلفاز أن سلسلة من التفجيرات قد لحقت بأنفاق محطات (المترو) في لندن، وأن تفجيرا آخر وقع لحافلة النقل العام بوسط لندن، وأن القتلى بالعشرات والجرحى بالمئات، وأن أصابع الاتهام تشير إلى المسلمين؛ لا سيما بعد أن أعلنت بعض الفصائل التابعة لقاعدة ابن لادن مسؤوليتها عن التفجيرات!..

ارتفع من بين الأصوات صوت شاب أسمر السحنة ممشوق القوام كثيف الشارب؛ ليعلن للملأ في صوت هادئ ونبرة حاسمة أن الإسلام بريء من هذه التصرفات.. بريء من قتل المواطنين الآمنين.. الإسلام ليس فيه عنصرية ولا بغضاء.. الإسلام لا يعامل الناس بحسب ألوانهم وأجناسهم، وابن لادن وشرذمته لا يمثلون إلا أنفسهم، والإسلام منهم براء!

وانقسم الناس من حوله ما بين مصغ باهتمام، ومقاطع باستخفاف، وتشجعت عبير للانتصار له وتأييده؛ لولا أنها تذكرت

أنها تركت أخاها في الحديقة وحيدا، فعادت إليه خوفا أن يصيبه مكروه من هؤلاء الذين بدت أفئدتهم تغلي بالحقد على كل من ينتمي إلى بلاد المشرق أو إلى دولة الإسلام!!

وخرج الشاب من المطعم ومر بالقرب من أمامهما، فتلقفته عبير لتشكره على جرأته، ودفاعه عن الإسلام والمسلمين.. ودَعَتْه للجلوس ليستريح مما أصابه من عناء.. جلس وقدم نفسه:

– محمد نذير من حيدر أباد. الهند..

= عبير عبد الله.. من الرياض، المملكة العربية السعودية.

بعض الناس يستطيع أن يتعارف بسهولة ويدير دفة الحوار مع الطرف الآخر دون معرفة مسبقة.. هكذا كان محمد نذير فقد استمر الحوار بينهما حوالي نصف ساعة.. تحدثا عن الإسلام والمسلمين في بريطانيا، بدءا من هجرات المسلمين إليها منذ القرن الثامن عشر وتعاظمها في القرن التاسع عشر.

وانتقل الحديث إلى تمتع الجالية المسلمة في بريطانيا بكافة حقوقها، فهنا المساجد التي تقام فيها الجمع والجماعات، وهنا الجمعيات والمراكز الإسلامية، وهنا تدرَّس الثقافة الإسلامية واللغة العربية في العديد من الجامعات، ويمارس المسلمون عباداتهم ويظهرون شعائرهم دون وجل. وتحسَّر محمد نذير على مستقبل الإسلام في هذه البلاد إن استمر هذا الإرهاب وامتدت عمليات الانتقام الشيطانية!

واستأذن نذير بعد أن نفَّس عن غضبته المزدوجة: غضبته من هؤلاء الإرهابين الذين – باسم الإسلام – يستهدفون مواطني البلـــد الذي أضافهم، وغضبته من هؤلاء الذين يلصقون بالإســـلام كـــل تصرف مشين!!

***

(11)

في يوم آخر من أيام هذا الصيف، كانت عـــبير وأخوهـــا يجلسان في المكان ذاته الذي التقت فيه نذيرا، وإذ به يمر بهما:

– مرحبا عبير..

= مرحبا.. سعيدة يا نذير أن أراك مرة أخرى.. لم أرك منـــذ يـــوم التفجيرات؛ في الشهر الماضي!

– الجامعة مدينة كبيرة، ومن الصعب أن يلتقي اثنان مصادفة! مـــن هذا الشاب اللطيف؟ رأيته معك ذلك اليوم ونسيت أن أسألك عنه!

= أخي فيصل جاء هنا لدراسة فصل صيفي في اللغة الإنجليزية.

هنا وجه خطابه إليه:

– مرحبا فيصل. هل أنت سعيد هنا؟

= أجل.

وطلبت عبير منه بلطف أن يستريح من وقفته، فشـــكرها، ووجـــه كلامه لفيصل وهو يجلس:

– هل تجولت في كارديف؟ والمناطق المجاورة؟

= نعم. تعرفت على كارديف، وزرت بعض المـــدن والأريـــاف في مقاطعتي (ويلز) و(إنجلترا)؛ منها ما هو بصحبة شقيقتي ومنها ما هو مع زملائي في المعهد..

– جميل!..

واستأذن منهما، وقال وهو يغادر:

– أرجو أن أراكما لاحقا.

ثم توجه بحديثه لعبير:

– وحتى لا نترك ذلك للصدفة هاهي بطاقتي وفيها رقم هاتفي المحمول.

وشكرت لطفه، واعتذرت من أنها لا تحمل بطاقات تعارف، وعوضا عن ذلك اتصلت بهاتفه وأغلقت هاتفها، وقالت له:

= وهذا رقم هاتفي!..

خلال هذه الجلسة تعرف كل منهما على الآخر وظروفه التي أوصلته إلى هنا.. عرفت منه أنه جاء إلى بريطانيا بعد حصوله على الثانوية العامة من بلاده، وواصل دراسته في (برايتون) حتى حصل منها على الدكتوراة في الفلسفة مع نهاية العام المنصرم، وقد تعين قبل أيام أستاذا مساعدا في هذه الجامعة..

***

بعد يومين؛ وفي عطلة نهاية الأسبوع اتصل محمد نذير بعبير ليدعوها وأخاها إلى مطعم هندي افتتح قريبا، وبعد تمنع منها وإلحاح منه وافقت..

بعد أن احتل كل من الثلاثة مقعده في المطعم؛ قال محمد نذير مداعبا فيصل:

– شقيقتك مشغولة بخطة رسالة الدكتوراة، أما أنا ففي إجازة، فلتسمح لي أن أكون دليلك السياحي!

كان من أهداف عبير حين أحضرت أخاها إلى كارديف – إضافة إلى تعلمه اللغة الإنجليزية – أن تفتح مداركه على عالم مختلف وبيئة اجتماعية غير مألوفة بالنسبة له، وأن تعلمه احترام الناس وحسن معاملتهم بغض النظر عن جنسياتهم وأديانهم، وتربي فيه الاعتماد على النفس والجد والمثابرة. وقد كان في تعرف أخيها على محمد نذير تطبيقا عمليا لكل الدروس النظرية التي كانت تلقنها إياه منذ وصوله إلى كارديف.

حقق فيصل نتائج في اللغة مبهرة قياسا بالوقت القصير الذي قضاه في كارديف، وحين عاد إلى أسرته في نهاية الصيف عاد بذكريات لا تنسى، وبحب لشقيقته عوضه عن حبه لأبيه، وبدافعية غير محدودة للتعلم والتفوق بعد هذه الإجازة الممتعة والمفيدة.. وعاد أيضا ليطمئن والدته على حياة شقيقته وراحتها!

وتكررت زياراته لبريطانيا في السنتين التاليتين بغية إتقان اللغة الإنجليزية، لكنه في كل مرة كان يختار مدينة أو مقاطعة أخرى حتى يجمع بين الدراسة والسياحة؛ غير أنه كان يخصص وقتا للقاء محمد نذير.. إما أن يزوره في كارديف، وإما أن يدعوه إلى مقر دراسته، وما ذاك إلا لأن نذيرا قد حظي باحترام فيصل وتقديره، وأن الصداقة قد توثقت بينهما إلى أبعد مدى!!

***

(12)

أنهي صالح – زوج إيمان – دراسته في كندا، وعاد حـــاملا شهادة الدكتوراة في الهندسة، فيما عادت هي تحمل شهادة الماجستير في التربية. وقد حاول صالح إقناعها بالبقاء بعده لإكمال الدكتوراة؛ لكنها لم تكن جادة في دراستها منذ وصولها إلى كندا وطول إقامتها هناك، فقد كانت كثيرة التغيب عن الجامعة والتردد على المملكـــة في كل مناسبة، ولعل فرحتها بالعودة لبلادها أكبر من فرحتها بحصـــولها على شهادة الماجستير!

عادت ولحسن حظها وجدت فرصة للعمل بوظيفة محاضرة في الجامعة التي احتضنتها سنوات الدراسة الأربع، وأكثر الظن أنهـــا ستنهي حياتها الوظيفية دون تقدم يذكر، فـــلا طمـــوحَ لـــديها ولا اجتهاد ولا بحوث ولا دراسات ولا محاضرات عامة ولا تأليفا.. لقد عادت بعد سنوات طوال مع زوجها تحمل شهادة عالية لكن بـــنفس الفكر الذي تخرجت به من البكالوريوس وغادرت به الوطن.

لم تكن تختلف كثيرا عن صديقتها نادية التي توقف طموحها عند شهادة البكالوريوس التي عثرت بواسطتها على وظيفة معلمة في مدرسة أهلية إلى أن عينت في مدرسة حكومية في قرية تبعـــد عـــن الرياض أكثر من مائتي كيلو متر، وصارت تتردد عليها يوميا.. تخرج

قبيل الفجر لتعود قبل غروب الشمس مع سائق يقتطع نصف مرتبها. وظلت تقترب من الرياض عاما بعد عام إلى أن انتهى بها الأمر في مدرسة لا تبعد كثيرا عن منزلها، وكان هذا هو منتهى طموحها!

ولهذا التقارب في الفكر والطموح بينهما لم يكن من المستغرب على إيمان منذ أن عادت إلى الوطن، واستقرت في الرياض ألا تفارق صديقتها نادية.. تلتقيان في كل مناسبة اجتماعية، أو تخلقان المناسبات إن لم تكن، وما أكثر المناسبات؛ فخالة إيمان – أم زوجها – تحظى بدعوة من كل عروس أو عريس تتوسط لهما؛ هما يقدمانها على سبيل المجاملة وهي تفسرها على أنها تقدير لها واعتراف بفضلها، ومرافقَتاها في كل مرة إلى حفل الزفاف إيمان زوجة ابنها، ونادية صديقتهما!

تَعلُّق نادية بإيمان وخالتها أوجد شرخا في علاقتها بزوجها أحمد، فهو لم يكن يرتاح لأم صالح منذ زواجه، وقد ازدادت كراهيته لها بسبب ملازمة زوجته لها وعدم قدرتها – أو عدم رغبتها – في الابتعاد عنها والالتفات إليه وإلى بيته وأولاده..

كثرة غياب نادية عن البيت دفع بأحمد للعودة إلى أصدقائه الذين تركهم بعد الزواج، فصار يتعقبهم في الاستراحات والديوانيات والملاحق. ومع أن عودته إلى أصدقائه بعد طول انقطاع أثارت غير قليل من علامات التعجب والاستفهام؛ إلا أنه بذل كل ما يستطيع لمنع تسرب خبر خلافه مع زوجته إليهم. وحتى مع كثرة ما سمع من تصريحات الأصدقاء وتلميحاتهم بخلافاتهم المتكررة مع زوجاتهم،

وتعريضهم بالنساء على سبيل المزاح أو الجد؛ إلا أن ذلك لم يشجعه على البوح بأسراره الزوجية.. لقد سمع من أصدقائه حكايات مشابهة لحكايته مع زوجته حتى إنه ليشك في أنهم قد اطلعوا على ما بينهما من خلاف، لكن ما يبعد عنه هذا الظن هو تعقيبات بعضهم مثل قول أحدهم:

– يا رجل.. النساء كلهن صنف واحد. أسواق وحفلات! أين نساء (وقرْنَ في بيوتكن)؟ الله المستعان!

وحينما يستمع من بعضهم إلى أن حل مشكلة الزوجة (المتمردة) هو في الزواج عليها، أو تطليقها يشمئز من هذا الرأي، ويخرج من صمته ليقول:

= هذا ليس حلا.. ما ذنب الأولاد الذين يصبحون كالأيتام وآباؤهم على قيد الحياة؟! وما دامت النساء صنفا واحدا كما تقولون فالزوجة الثانية لن تختلف عن الزوجة الأولى.

ولا يتركه أصحابه هنا دون التعريض به:

– بل قل إنك خائف من أم سامي!

عاد أحمد إلى منزله أكثر سعادة.. وجهه يطفح بالبشر والسرور، فقد أدرك أنه يعيش في جنة مع نادية مهما لقي منها من منغصات، وأنه إن استمر في سهراته مع أصحابه فلن تعود المياه إلى مجاريها بينه وبين زوجته؛ بل ستفيض في كل اتجاه! فكل ما جرى بينهما يجري بين كل الأزواج، ولا يستحق أن يصل إلى ما وصل إليه.. هذا ما فكر فيه أحمد بعد جلسة مع نفسه لمراجعة مسيرة

امتدت سبع سنوات من الزواج الذي أقل ما يوصف به أنـــه زواج ناجح إذا ابتعدنا عن المثالية التي لا وجود لها إلا في الأذهان.

وعد أحمد نفسه بأن يكون أكثر تفهما لزوجته ورغباتها المشـــروعة. وأخذ يسائل نفسه:

لِمَ يتدخل في اختيارها صديقاتها؟ أليس هو لديه أصدقاء لا تطيقهم زوجته، لكنها لم تقل له يوما ما اترك عنك هـــذا أو ذاك.. ولِمَ يتحكم في حضورها المناسبات؟ أليس هو يحضـــر - ويقـــيم - العديد من المناسبات التي ترى زوجته أنه لا داعي لها، فهل لامته على تصرفاته؟ وأية تسلية للنساء غير الحفلات؟! ثم ما الذي رآه من إيمان ومن خالتها أم صالح؟ أليست إيمان صديقة نادية منذ سنوات الدراسة الجامعية؟ أليست أم صالح هي من زوَّجه بنادية؟ أليس من المنطق أن يعترف بفضلها ويحمد لها حسن اختيارها؟

***

(13)

في بداية زواجه كانت أم صالح حريصة على أن ترى ذرية ابنها، وكانت تلح عليه بعدم الانتظار وتسخر منه حين يقول: "لم نفكر في العيال بعد.. الدنيا ما طارت.. لِمَ نستعجل الشقاء"؟!..

وكان كل من صالح وإيمان صادقين في عزمهما تأخير الإنجاب في السنوات الأولى لزواجهما، لكن المفاجأة كانت حين أرادا، وقاما بالفحوص المخبرية اللازمة فتبين أن صالح عقيم ولا أمل لهما في ذرية.

أما أم صالح فلم تكن لتستريح لتصريح ابنها لها بالحقيقة بعد إلحاحها المستمر عليه، و لم تكن لتقبل نتائج المختبرات والمستشفيات مدعية أن الإنجاب تتحكم فيه المرأة أكثر من الرجل، وأخذت تلح على إيمان بمرافقتها لإحدى الطبيبات الشعبيات اللاتي اشتهرن بعلاج النساء؛ لا سيما حالات العقم. ولما يئست من موافقتها أخذت تزين لابنها تطليق زوجته والزواج بأخرى؛ حتى إذا واجهها بالرفض التام أخذت تلح عليه بتجريب حظه بزوجة أخرى مع الإبقاء على زوجته!

إيمان سعيدة مع زوجها، وبينهما حب متبادل لا يعرف قيمته وقدره إلا المحرومون منه. لم يبخل عليها بشيء يسعدها منذ أن

تزوجا، و لم ينكد عليها معيشتها كما تسمع من الأخريات وهن يتحدثن عن أزواجهن. لا ينغص معيشتها شيء إلا إذا مر بخاطرها هاجس الإنجاب؛ وبخاصة حين يلمح صالح هذا الشعور في عينيها، أو على قسمات وجهها فتحاول تغيير ملامحها بأسرع ما يمكن حتى لا يلاحظ المزيد من هذا الشعور.

فكرا في تربية طفل أو طفلة من أبناء دور الرعاية الاجتماعية، ليكون عوضا لهما عن ابن حقيقي، ولينسيهما التفكير في الإنجاب، وفرحا بهذه الفكرة خصوصا بعد أن بدآ أولى خطواتهما بالبحث والاتصال بالمؤسسات الاجتماعية، ووجدا من هذه المؤسسات كل تعاون وترحيب، لكنهما ما كادا يبدآن الخطوة الأولى للتنفيذ إلا اصطدما بواقع لم يحسبا حسابه!.. واقع يقول إن حياة الطفل في دار الرعاية قد تكون خيرا له من حياته في أسرة بديلة وسط هذا المجتمع الذي انتزعت منه الرحمة!

لقد سمعا من زملاء وزميلات لهما مروا بهذه التجربة قصصا محزنة؛ منها أن الطفل في الأسرة البديلة يظل موضع تساؤل من كل المحيطين به من كبار وصغار؛ عن كنهه وعلاقته بهذه الأسرة، ومَنْ والداه وأينهما؟ أسئلة كثيرة لا يعرف الطفل لها إجابة؛ لا سيما أنه لا يأخذ اسم العائلة البديلة. والأدهى من ذلك أن فئات من المجتمع – لا سيما الأميين والأميات منهم – قد ينادونه بصفات تجرحه بدلا من اسمه الذي اختير له!.

إن المجتمع – مع الأسف – لم يتقبل بعد فكرة تربية طفل غريب أو طفلة في أسرة بديلة، وأن بعض هذه الأسر همها أن تحل مشكلتها في الإنجاب بدلا من أن تحل مشكلة الطفل الغريب! وقد أحس صالح بهذا الشعور من أقرب الأقارب؛ من أمه حين ألمح لها عن عزمه إحضار طفل من أبناء دور الرعاية الاجتماعية لرعايته، فردت عليه بكل فظاظة:

– أعجزت أن تنجب من صلبك فتأتي بأولاد الناس لتربيهم؟! قلت لك تزوج ثانية ويرزقك ربي!

لقد سمع صالح من أمه الكثير حول موضوع تجريب حظه بزوجة أخرى، لكنها هذه المرة انفعلت أكثر من أي وقت آخر حين وصل الأمر إلى تربية طفل غريب لديهما!. ارتفع صوتها وهي تحاول إقناع ابنها بالزواج من ثانية حتى وصل حوارهما إلى مسامع إيمان، لكن إيمان تمالكت نفسها وتجاهلت ما سمعته من خالتها؛ خاصة بعد أن سمعت زوجها يرفض فكرتها تماما، لكنها لم تخفِ غضبها وامتعاضها منها. لقد أدركت إيمان أنها لو تدخلت وأعلنت عن غضبها ربما شفت شيئا مما في صدرها، لكنها ستصبح هدفا لعجوز ذئبة لا تقوى على خططها ولا مكرها، ويكفي أن زوجها وقف وقفة محمودة معها..

ولم تكن والدة إيمان بعيدة عن المشهد فقد ألحت عليها كثيرا بطلب حقها الشرعي في الطلاق من زوجها بعد أن أعلمتها أن زوجها هو السبب في عدم الإنجاب، لكن إيمان استطاعت أن تقنعها

بأن هذه حياتها، وهي التي تتحمل نتائجها، وأن لـــدى أمهـــا مـــن الأحفاد ما يغنيها عن ذريتها!..

وهكذا انتهى التفكير في الذرية من قبـــل إيمـــان وزوجهـــا ووالدتها ووالدته. لكن هؤلاء ليسوا كل المجتمع.. بقيت الصـــديقات والزميلات والجارات؛ من لا يصرح منهن يلمح، والسؤال المـــؤذي تحول بعد تفشي الأسرار من: "متى نرى أولادك يا إيمان"؟ إلى: "إلى متى تظلين مع زوج لا ينجب"؟

ما أصعبه من سؤال! هي نفسها لم تسترح منـــه إلا حـــين أقنعت نفسها أن ذلك قدر الله المحتوم، وأوجدت لنفسها مسوغا وهو الحب المتبادل بينها وبين زوجها، ولذلك فإنها تضـــحي بالذريـــة في سبيل هذا الحب!. لكن أقل القليل من يدرك أن الحب يأتي ســـابقا لكل أولوية بما في ذلك الذرية. ومن هؤلاء القلة نادية التي قـــدرت اختيار إيمان حياتها ورضاها بها، وهذا ما زاد في تقاربهما، ومكن من صداقتهما!

خلاف إيمان وخالتها كان خيرا لنادية وزوجها وبيتـــها؛ إذ بمجرد أن فترت علاقة إيمان بخالتها انقطعت علاقة نادية بأم صالح؛ في حين ظلت إيمان ونادية تلتقيان من حين لآخـــر في أحـــد المقـــاهي النسائية أو المجمعات التسويقية، مما جعل نادية تولي أسرتها – لا سيما زوجها – اهتمامها، وعادت علاقتها به أفضل من أي وقت مضى!!

***

(14)

عرفت عبير الطريق إلى التلفاز من خلال إحدى القنـــوات الجامعية بادئ ذي بدء ثم إلى إحدى القنوات التجارية حتى أصبح لها برنامج أسري تقوم بإعداده وتقديمه، وكانت قبل ذلك قـــد بـــدأت تكتب في بعض المجلات المتخصصة.

وكان هذا سببا آخر من الأسباب العديدة التي جعلت محمد نذير يتعلق بها، فقد أعجبه فيها طموحها وانفتاح ذهنها وعلاقتـــها المتميزة مع الآخرين، وحبها للعمل والتطوع.. تبين له أنها مكســـب حقيقي لكل من عرفها..

تكررت اللقاءات بينهما.. في البداية في الجامعة، ثم أصـــبحا يلتقيان خارج الجامعة؛ وخاصة في نهاية الأسبوع فيقضـــيان بعـــض الوقت في خليج كارديف، أو يتناولان طعام العشاء معـــا في أحـــد المطاعم التي تقترحها عبير تارة، ويقترحها نذير تارة أخرى!

عرف نذير عن عبير كل شيء.. عن حياتهـــا وطموحهـــا وتطلعاتها، وتعرف على ظروفها الأسرية. كما عرف منها - ومـــن الجامعة والتلفاز - نشاطاتها الاجتماعية والإعلامية. وعرفـــت عنـــه دماثة أخلاقه وحسن تصرفه وفضوله المحبب! وقد استمعت له أكثـــر من مرة وهو يحاضر في الجامعة بنبرات هادئة لا سيما عند محاورتـــه مهما كان الحوار مستفزا ومثيرا، فتوقعت أن يكون خير معين لها في

برنامجها الأسري الذي تعده وتقدمه.. رأت أن برنامجها سيحقق نجاحا أكبر حينما يكون التقديم فيه من مذيعيْن مختلفي الجنس والجنسية، وعلى شكل حوار بين طرفين بدلا من طريقة الإلقاء التقليدية، فأشركته معها في برنامجها، وأوكلت إليه إجراء مقابلات مع المهتمين من أساتذة الجامعة، ومن ذوي التجارب من طلبة الجامعة وطالباتها، فخطا البرنامج خطوات متقدمة واكتسب شهرة واسعة!

***

تلقى محمد نذير إبان دراسته في الفلسفة لمرحلتي الماجستير والدكتوراة مواد مختلفة عن الأديان، وعن التاريخ القديم والحديث، وعن علم الإنسان (الأنثروبولوجيا). ولذلك كان يستهويه حديث عبير عن تاريخ الجزيرة العربية وظهور الإسلام فيها وانتشاره خارجها، وكان يستمع بشغف لحديثها عن الفتوحات الإسلامية فيما بعد، ووصول الإسلام إلى شبه القارة الهندية والصين. ويستهويه أكثر الحديث عن الواقع المعاصر للمملكة العربية السعودية ولا يخفي أمنيته بزيارة المملكة للحج والعمرة، وحلمه في الحصول على عمل في المملكة والإقامة فيها. وكان كثيرا ما يعرِّض بعبير – على سبيل المزاح – لهجرها موطنها الذي يتمناه الملايين!

يوما بعد يوم ازدادت العلاقة رسوخا بين عبير ونذير، وبدا أن كل طرف يشتاق للطرف الآخر، ويتمنى البقاء معه أطول وقت ممكن.. أحبت كارديف حبا جديدا مختلفا عن كل حب مضى، وصارت تستعجل انتهاء إجازتها بين أهلها ووطنها في كل صيف

لتعود إلى محبوبتها (كارديف) وهي في حقيقة أمرها تشتاق إلى من أضفى على هذه المدينة الحب والجمال: محمد نذير الذي أحبته بكل جوارحها!.. لقد تعلمت أن الأماكن – مهما كانت جميلة وفاتنة – فإنها لا تزين إلا بسكانها.. فكارديف مدينة جميلة ساحرة لكنها تراها اليوم أكثر جمالا وأظهر سحرا.. لقد أحبت كارديف من قبل لكنها اليوم ازدادت بها شغفا!

مرت السنوات سراعا حتى حصلت عبير على شهادة الدكتوراة بامتياز في التربية، وكانت فرحة محمد نذير لا توصف وهو يحضر مناقشة رسالتها، وتتويجها بالدرجة العلمية، لكنها فرحة مشوبة بالأسى لأن حصولها على الدكتوراة يعني أنهما سيفترقان، ولا يدري متى يأذن الرحمن بلقائهما مرة أخرى! و لم يستطع إخفاء حزنه وهما يحييان هذه المناسبة على زورق صغير يتهادى على موجات خليج كارديف، في ليلة شهدها، وشهد عليها بدر السماء ونجومه!!

وهي تستعد للعودة إلى الوطن تحمل هذا الخبر السعيد لأمها ولإخوتها ولأحبائها، تلقت خبرا أسعدها أكثر! فقد عرضت عليها الجامعة التي تخرجت منها العمل فيها. وقد كان لطموحها غير المحدود وعدم ارتباطها بزوج أو والد أو ولد أثره في موافقتها السريعة وقبول هذا العرض المغري. وغير بعيد أن يكون محمد نذير سببا آخر عجل باتخاذ القرار!

أما محمد نذير فلم يُر في يوم من الأيام أكثر سعادة منه في هذا اليوم!!

***

(15)

واظب فيصل على قضاء فترة الصيف في بريطانيا حتى إنهاء دراسته الجامعية، مما مكنه من اللغة الإنجليزية تمكنا تاما، ولذا فإنه حين تخرج من الجامعة هذا العام وحصل على بكالوريوس في إدارة الأعمال لم يجد صعوبة في العثور على وظيفة في أحد البنوك؛ وفي مركز متقدم ومهم.

وكان فيصل يوم أن نشب الخلاف بين أبيه وعمه أصغر من أن يستوعبه أو يلم بتفاصيله، و لم يشغل نفسه به خاصة بعد وفاة أبيه. ومع عدم تجدد ما يزيد المشكلة، ومع ما يراه من تواصل بينه وبين عمه وأبنائه نسي الموضوع تماما أو كاد..

(سحر) ابنة عم فيصل – فضلا عن كونها ذكية ومتفوقة في دراستها – فهي ذات حس جمالي راق وموهبة جلية؛ مما جعلها تختار دراستها الجامعية في قسم التربية الفنية.. كانت مولعة بالرسم التشكيلي، فمارسته منذ صغرها، وحين بدأت دراستها الجامعية أولعت بحضور المعارض الفنية التي تقام في المملكة، وهي تتهيأ الآن لإقامة معرضها التشكيلي الأول! وقد أحبها فيصل حبا جما وبادلته المشاعر نفسها، وهيآ نفسيهما لتشييد عش الزوجية! كانت فرحة

سحر لا توصف وابن عمها يهنئها بتخرجها من الجامعة بتفوق، ويخبرها بأنه سيطلب يدها من أبيها فورا!

دخل فيصل منزله كالمنتشي من السعادة، والتقى أول ما دخل صالة المنزل أمه، وتفرست في وجهه وهي تقرأ الفرحة في أساريره.. قبَّل رأسها وبدأ حديثه معها:

– أمي.. سحر تخرجت من الجامعة!

= ما شاء الله تبارك الله.. الله يوفقها.. تستأهل كل خير.. بنت مؤدبة وعاقلة!

وسر فيصل وهو يسمع رأي أمه في ابنة عمه؛ حتى قبل أن يفاتحها في موضوع الحديث الذي جاء من أجله:

– وإذا قلت لكِ أني قد اخترتها لتكون شريكة عمري هل تخطبينها لي؟!

= هذه الساعة المباركة يا ولدي. لكنك تعرف أن علاقتي بعمك وأهله ليست على ما يرام، ولا أظنهم ينسون أنّا لم نوافق على تزويج عبير ابنَهم حمودا، ولا أظن عمك ينسي أني لم أوكله على شؤوننا بعد وفاة والدك.

– هل تتوقعين أن يردني لو خطبت ابنته؟! لا أظن ذلك يا أمي.. كم مضى على تلك الحكاية؟ ثم إن الرجل يقدرني ولا يعدُّني إلا واحدا من أولاده..

= جرب حظك يا ولدي.. الله يوفقك ويختار لك ما فيه الأصلح..

***

أدى فيصل صلاة المغرب في المسجد المجاور لقصر عمه أبي حمود، واقترب منه بعد أن أدى ركعتي السنة، وقبَّل رأسه، وظل العم ممسكا بيد ابن أخيه وهما يسيران معا إلى القصر..

رحب العم بابن أخيه وهو يقوده إلى أحد المجالس القريبة من المدخل الرئيسي، وأقبل الخادم بِـ (دَلَّة) القهوة وقدم فنجانا للعم، ثم فنجانا آخر لفيصل.. التفت أبو حمود إلى ابن أخيه:

– تفضل يا ولدي (وأشار بيده إلى طبق التمر أمامه).. كيف حالك؟ وكيف حال أهلك؟

= بخير يا عمي الله يحفظك.

– والدتك بخير؟ كيف صحتها؟

= بخير ونعمة..

– والدكتورة عبير.. أما فكرت في الرجوع؟ أما تخرجت وانتهت؟ ماذا تنتظر؟

= أنهت دراستها لكنها توظفت هناك!..

– والمملكة ما فيها وظيفة تليق بها؟! لماذا لا تطلب منها أن ترجع؟ ألست ولي أمرها؟!

كيف سيعيد فيصل دفة الحديث إلى الغرض الذي جاء من أجله؟ وكيف سيفاتحه في الموضوع وقد سمع من عمه انتقادا صارخا لعجزه عن ولاية أخته؟.. إن رجلا لا يستطيع السيطرة على شقيقته وإعادتها إلى جادة الصواب؛ فهو من باب أولى لا مقدرة له على إدارة بيت الزوجية.. هذا ما اتضح من انتقاد عمه إياه وتوجيه اللوم

إليه! هل يؤجل طلبه إلى وقت آخر؟ أم يتشجع ويفجر مفاجأته بين يدي عمه فورا؟! أم يخرج بالحديث قليلا من هذا الجو ثم يعود إليه بعد أن يهدأ عمه وينسى موضوع عبير!

شتم في داخل نفسه أخته التي سوَّدت وجهه أمام عمه مرتين؛ مرة برفض ابن عمها، ومرة بغربتها!..

وفجأة اكتشف مدخلا سهلا للولوج في الموضوع:

= مبروك يا عمي نجاح سحر!

– الله يبارك فيك.. والله يا ولدي دراسة البنات ما فيها مطمع! الواجب أن يُعلَّمن القراءة والكتابة وأمور دينهن وكفى!..

حين أشار أبو حمود إلى الخادم الواقف قرب باب المجلس ليسكب (بيالة) شاي جديدة لابن أخيه خَمَّن فيصل أن عمه ما زال مستأنسا بالحديث معه، فانتهز الفرصة ليقول له على الفور:

= ما عندي إلا سلامتك يا عمي.. يشرفني أن أطلب يد ابنتك سحر زوجة لي على سنة الله ورسوله!

تغير وجه العم وهو ينظر إلى فيصل نظرات لا تخلو من ازدراء أثارت فيصل لكنه حافظ على هدوئه غير المعتاد.. وقال العم:

– لكن يا فيصل أنا أعرف أن القول في بيتكم للنساء! منذ حياة والدك الله يرحمه والقول للنساء.. هل أخذت رأي والدتك؟ أخشى أن يكون لها رأي مغاير!

= الله يسامحك يا عمي! ما ظننت هذا منك!

– وإذا زوجتك ابنتي وقالت لك: "أريد أن أكمل دراستي في الخارج مثل عبير فهل ستقول لها: "حاضر.. الرأي ما ترين"؟! ثم من أين ستصرف عليها لو أصبحتْ زوجة لك؟ من راتب البنك الربوي الذي تعمل فيه؟!

هنا لم يصبر فيصل على المزيد من التقريع، وقام من المجلس وهو يقول:

= ومن أين للبنك بالمال الذي يرابي فيه؟ أليست أموالك وأموال أمثالك؟! أهذه نظرتك لمن يحرسون أموالك؟! إن كنت صادقا في اعتقادك فأخرِج حلالك من البنك واحفظه في بيتك!!

***

(16)

قاعة المحاضرات الرئيسية في الجامعة النسائية بالرياض امتلأت عن آخرها.. عضوات هيئة التدريس والضيفات احتللن الصفوف الأولى، في حين توازعت الطالبات بقية الصفوف.. أخذت إيمان تقدم صديقتها المحاضِرة وأكدت للجمهور أنها عرفتها منذ كانتا زميلتين في الدراسة الجامعية مع زميلتهما الأستاذة نادية – وأشارت إليها بيدها – ثم أخذت تعرِّف بالمحاضِرة، فقالت إنها أستاذة سعودية مقيمة في المملكة المتحدة بعد تخرجها من هناك، وتعمل في واحدة من أعرق جامعاتها ومتخصصة في التربية الأسرية، وهي إلى جانب ذلك شخصية معروفة في أوساط المجتمعين السعودي والبريطاني على حد سواء، فبالإضافة إلى عملها في الجامعة فهي صاحبة عمود في مجلة أسبوعية، ومعدة لبرنامج تلفزيوني عن الحياة الأسرية في إحدى محطات التلفزة البريطانية، وهي ناشطة في مجال حقوق الإنسان بصفة عامة، وفي حقوق المرأة بصفة خاصة!.

بدأت الدكتورة عبير كما يبدأ المحاضر عادة بالترحيب بالحاضرات، وأكدت أنها ستكون سعيدة بالإجابة عن أي سؤال قد يخطر في بالهن بعد انتهاء محاضرتها ما دام يحمل صفة الجدية في الطرح.. تحدثت المحاضرة عن (الحب) بمفهومه الواسع ومجالاته

المنوعة، وأنه ليس مقصورا على حب فتى لفتاة، أو حب فتاة لفتى. ثم عرجت على أن الفتاة قد تميل أو تعجب بشخص ما فيخيل إليها أنها عاشقة مغرمة، ويتعلق فؤادها به ظنا منها أن هذا هو الحب.

وأضافت أن من الفتيات من تجعل من هذا الذي استلطفته فارس أحلامها وتبالغ في الخضوع له بلين القول، وتتمادى في محادثته ومراسلته، وتذوب في معسول كلماته، وتستجيب لتأوهاته وشكواه من فراقها، وحنينه وشوقه للقائها. وقد تتطور العلاقة بينهما إلى الخروج معه، وربما إلى ما هو أبعد من ذلك.. كل ذلك وهي تظن بحسن نية أن هذا هو السبيل لمزيد من التعارف والتقارب، وأن نهاية هذا الطريق هي الحلال.

وسرت عبير حين رأت الصمت يسود القاعة وأن الحاضرات يصغين لها بكل اهتمام.. أخذت جرعة من الماء قبل أن تواصل:

وقد يسايرها الشاب إذا رأى في هذه المسايرة ضمانا لاستمرار علاقته معها ولهوه بها؛ لكن الحقيقة المؤلمة التي تتكشف في كثير من الحالات أن الشاب حين ينوي الزواج تكون هذه التي عبث بعواطفها – وربما بجسمها – خارج حساباته تماما!

وخلصت المحاضرة إلى أن هذا الحب العابث الذي لا هدف له إلا تمضية الوقت والتسلية ليس الطريق الصحيح للبحث عن حب أو زواج. وتحدثت عن تجارب لصديقات لها تزوجن من غير حب، وأحببن بعد زواجهن حبا لا حدود له؛ عوضن به ما فاتهن من قبل، وانتهت إلى أن كثيرا من حالات الحب العابث لو آلت إلى

زواج؛ فإنه غالبا ما يكون زواجا فاشلا لأنه لم يُبْنَ على أسس ثابتة، ولأن مبدأ الشك في الطرف الآخر يظل هو المهيمن على علاقتهما!!

وهي تتحدث كانت تدير ناظريها في وجـــوه الحاضـــرات، فتقرأ في وجوههن الارتياح أو الامتعاض.. إنها تستطيع بحكم خبرتها أن تقرأ قصة كل واحدة من الحاضرات أمامها من خلال تعـــبيرات وجهها.

انتهت المحاضِرة، وبدأت في استقبال الأسئلة والإجابة عنـــها بصدر رحب لم تتعوده طالبات الجامعة من الكثير من عضوات هيئة التدريس لديهن اللاتي يتعاملن معهن بشيء من الغلظة والصرامة!

أولى المداخلات كانت من إحدى طالبات الدراسات العليا؛ قالـــت لها:

– إنك تتحدثين بعد هذه السنوات الطوال من الدراسة والابتعـــاث والتجربة وكأنك إحدى العجائز.. إن ما تقولينه عن الحـــب بعـــد الزواج هو ما تردده أمي عليَّ وعلى أخواتي!

قالت الدكتورة عبير:

= ومن قال لك إن أمهاتنا – لأنهن لم يدخلن المدارس و لم يلـــتحقن بالجامعات – قاصرات في أفهامهن.. لا أكتمك سرا أنني أخذت هذه المقولة من عجوز أمية، وقد أجريت دراسة ميدانية على عينة كـــبيرة وعشوائية من المتزوجات تبين لي منها صحة نظرية العجائز!!

إحدى الحاضرات لم تجرؤ على طرح سؤالها علانية، ولا على الإفصاح عن اسمها، ولذلك أرسلت سؤالها ضمن الأسئلة المكتوبة إلى المحاضِرة وقرأته إيمان:

– يقال إن خلافا نشأ بينك وبين أسرتك وكان هو السبب في مغادرتك البلاد. ما نصيب هذا القول من الحقيقة؟!

أجابت عبير وهي تبتسم بعد أن علقت على عدم إفصاح السائلة عن اسمها:

= لا.. لم يكن هناك خلاف بيني وبين أسرتي.. خلافي كان مع المجتمع! كل ما هنالك أنني من قبيلة تؤمن بعادات بالية؛ وهي أن ابن العم أولى بابنة عمه، وقد رفضت الزواج بهذه الطريقة؛ ليس لمجرد الخروج على تقاليد القبيلة، ولكن لأنني لم أر أن المتقدم يناسبني، و لم يكن ذلك سببا في مغادرتي البلاد..

وعلقت إحدى الحاضرات بقولها:

– يقال إنك (أضربتِ) بعد هذا الموقف عن الزواج، وأنك انصرفت كلية إلى الدراسة، وأن سبب إقامتك في بريطانيا أنك (تعقّدتِ) من الرجال؟!

بعد أن تلاشت الضحكات الخفيفة والابتسامات ردت المحاضرة بأدب جم على السائلة بقولها:

= إن المرء يخطط لحياته كما يحب، ولكن المولى سبحانه يختار له الأرأف به والأصلح.. لا أنكر أني في البداية صدمت من إصرار عمي على موقفه لكني عذرته لأنه نتاج هذا المجتمع، و لم أتردد في قبول

البعثة الدراسية إلى المملكة المتحدة بحكم أني كنت معيدة في الجامعة، وقررت أن أقف حياتي على العلم.. أما عن إقامتي هناك فقد كنت إحدى الطالبات المتفوقات وبعد التخرج وجدت الجامعة البريطانية تعرض علي العمل بمرتب مغر في مناخ علمي لا يتهيأ لي في مكان آخر!

ازدادت جرأة الحاضرات بعد ذلك حتى سألت إحداهن من خلال سؤال مكتوب:

– أظنك لا تزالين عزباء؟! هل ستقبلين بابن الحلال لو تقدم لك الآن؟!

ردت بلطف أيضا:

= الزواج ليس هدفا في حد ذاته، وليس هو نهاية الكون.. أنا لم أفكر فيه منذ رفضي لابن عمي وسفري قبل تسع سنوات، ولكن القلب لا يمكن غلقه.. ليس للزواج سن معينة!

– والحب؟! (سألت أخرى): هل مررت بتجربة ثانية؟!

فأجابت:

= الحب قيمة سامية.. لكن الحب بمفهومه الواسع ليس حب فتاة لفتى أو العكس.. أنا أحببت الدراسة والعلم والتعليم والجامعة والتلفاز والصحافة وطلابي وطالباتي وزملائي وزميلاتي.. ربما لم تكن الفرصة متاحة لقلبي لحب رجل، أو لم يجد الرجل الطريق إلى قلبي مفتوحا!

قالت لها إحدى المداخلات:

– هل تنوين العودة إلى المملكة والاستقرار فيها؟ ومتى؟

فأجابتها على الفور:

= إن شاء الله. عندما يبدأ المجتمع يهتم بفكر المحاضر أكثر من اهتمامه بشخصه!

كل من كان يحاول إثارة المحاضرة وإخراجها عن طورها لم يفلح! انتهت الدكتورة عبير من محاضرتها، وبدأ الجميع في الانصراف، وأقبلت عليها صديقتاها نادية وإيمان، فشكرتهما على حضورهما ومشاركتهما الحوار، وشكرت على وجه الخصوص إيمان لحسن تقديمها إياها، ولمهارتها في إدارة الجلسة.

وحاولت كل منهما الاعتذار بأنه لم يكن قصدها الإساءة إليها، أو الاستفادة من معرفتها السابقة بها..

قالت نادية : أنا أردت أن تنفي بنفسك مقولة شائعة هنا، وهي إن غربتك عن الوطن بسبب خلاف عائلي!

وقالت إيمان : وأنا أحببت أن أطمئن أن جذوة الحب في قلبك ما زالت متقدة!

تشبثت كل من نادية وإيمان بعبير للبقاء معهما وقتا أطول، أو تخصيص وقت آخر للقاء يستعدن فيه ذكرياتهن الجميلة؛ خاصة أنهما لم يلتقيا بها منذ زمن طويل، واعتذرت بارتباطاتها وبرنامجها المكثف ووقتها المحدود، لكنها أخرجت من حقيبتها عددا من بطاقات فاخرة لدعوات زفاف.. وقالت لهما بعد أن سلمتها لهما:

– سنلتقي في هذه المناسبة بعد أسبوعين!

وقبل أن تفض نادية البطاقة صرخت:

= زفافك؟!

– لا.. زفاف أخي فيصل!!

***

(17)

منذ أن اكتشفت إيمان تحريض خالتها أم صالح ابنها على تطليقها أو الزواج بأخرى بحثا عن ذرية وهي تتعامل معها على حذر، فلم يعد يستهويها التبسط في الحديث معها ولا مرافقتها لحفلات الزفاف، بل لقد كرهت هذه المناسبات لما تلاقيه من الإحراج؛ خاصة أن خالتها لا تترك واحدة في الحفل إلا انفردت بها جانبا لتأخذ معلوماتها إن كانت بلا زوج وتحفظها في ذاكرتها. ولذا سلمت إيمان لخالتها بطاقة دعوة حفل زفاف فيصل، وأعلمتها باختصار شديد بالموعد والمكان. وسألت أم صالح:

– مَنْ أهل العروس؟

= عائلة (الهامور)!

– التجار المعروفون؟!

= نعم يا خالة.. هم لا غيرهم..

– وأين العرس؟

= في الفندق الكبير الذي في شارع السعادة!

– الله يسعدنا وإياهم.. أين نحن من هؤلاء؟ الله يرحم حالنا؟! لكني سأحضر من أجل صديقتك عبير!!

أم صالح تريد أن تجعل من هذه المناسبة عدة جسور تصل بها ما انقطع، أو أهمل من علاقات.. جسرا يجدد معرفتها بعبير وأمها اللتين لم ترهما بعد زفاف ابنها صالح منذ عشر سنوات، وجسرا يعيد العلاقة المقطوعة بينها وبين نادية، وجسرا موصلا لإيمان لإنهاء حالة الصمت واختصار الإجابات؛ فإيمان مصدر ثري للأخبار؛ لا سيما أخبار المجتمع الجامعي النسائي!

***

ذهبت أم صالح لصالة الأفراح لوحدها لأن إيمان كانت منذ الصباح في بيت أهلها، ومن هناك أكملت زينتها واستعدادها وتوجهت لصالة الأفراح بصحبة والدتها، وما لبثت نادية أن لحقت بهما. حاولت نادية تحاشي لقاء أم صالح لكن هيهات! فأم صالح على الرغم من كبر سنها وزيادة وزنها لا تستقر في مكان واحد. بدأت جولتها في صالة الأفراح بعبير ووالدتها اللتين استقبلتاها بكل بشاشة وارتياح حتى إن ما كانت تظنه من تعالي أم فيصل وابنتها لم تجد له أثرا.. باركت لهما، وتحدثت مع عبير، وسألت عن أحوالها وحياتها في الغربة، وأجابت عبير بما سمح به الوقت.

ثم انتقلت بين الصفوف بحثا عن نادية حتى عثرت عليها تجلس بجانب إيمان فبادرتها بصوت مسموع وكأنها لا تدري ما سبب مقاطعتها إياها:

– نادية هنا؟ الحمد لله على السلامة يا (القاطعة)! ألا تقولين: أسأل عن خالتي أم صالح؟!

خجلت نادية وقامت من مكانها لتبادلها القبلات والترحيب:

= أهلا أم صالح. كيف حالك؟ وكيف أولادك؟ والله إني دائما أسأل إيمان عنك وتطمئنني.

– لكن لِمَ كل هذا الغياب؟ لِمَ لا تسألين؟ كيف حال أحمد؟ وكيف حال أولادك؟

= الحمد لله كلنا بخير..

تركتهما وفي نفسها شيء من عدم دعوتها للجلوس معهما، وانتقلت إلى ركن آخر بحثا عمن تعرفه أو من تتعرف عليه، إلى أن التقت بوالدة إيمان فسلمت عليها، وجلست إلى جوارها. وقالت معرِّضة بابنتها:

– أين إيمان؟ أليست معك؟

= بلى.. موجودة مع صديقاتها!

– آه.. أين ذاك الزمان الذي ما كنا نبعد فيه خطوة عن أهلنا..

= الزمن تغير يا أم صالح، وكل جيل لا يستريح إلا مع أنداده!

مرت ساعات الحفل البهيج سريعة على كل الحاضرات إلى أن زُفّت العروس إلى عريسها، وتناول الجميع طعام العشاء من البوفيه المفتوح، وتوقفت الفرقة الفنية عن تقديم فقراتها..

كل الحاضرات لم يرين فيما شاهدن من موضات غريبة وملابس عارية وطعام باذخ وغناء ماجن ورقص مبتذل؛ لم يرين فيه شيئا خارجا عن المألوف ما عدا عبير التي أخذ عقلها يسجل

ملاحظاته منذ اللحظة الأولى لدخولها صالة الأفراح إلى أن خرجـــت بنتيجة مفادها:

"مجتمع له خصوصيته"!

***

(18)

عادت عبير هذه المرة إلى كارديف وهي تحمل صورة قاتمة عن المجتمع السعودي الذي ابتعدت عنه سنوات طويلة.. هذه المرة استطاعت أن تتغلغل فيه أكثر مما عملت في زياراتها السابقة، إذ كانت فيما مضى لا ترى إلا أهلها وبيتها وبعض أقاربها، وكانت لا تتعامل مع دوائر حكومية ولا أهلية إلا على قدر يسير كأن تجدد جواز سفرها، أو تراجع السفارة البريطانية لتجديد أو تمديد تأشيرتها، أو تراجع وزارة التعليم العالي لأمور تتعلق ببعثتها، وهي كلها مراجعات وتعاملات لا تكشف عن وجه المجتمع ولا دهاليزه..

هذه المرة حاضرت في الجامعة والتقت بالطالبات وبهيئة التدريس وحاورتهن وحاورنها، والتقت بصديقتي الدراسة الجامعية نادية وإيمان واتضح لها ضآلة تفكيرهما؛ حتى إيمان التي درست في كندا، واشتغلت في الجامعة!..

وحضرت زفاف أخيها فيصل ورأت مظاهر البذخ والمباهاة الكاذبة، وشاهدت مظاهر الإسراف في المشروبات والطعام والحلويات بما يخالف ما أمر به الدين الحنيف.. بل لقد لاحظت أكذوبة أننا مجتمع له خصوصيته وعاداته وتقاليده المستقاة من تعاليم

الدين الإسلامي! فأين ديننا من مظاهر الكذب والنفاق والرياء؟ وأين ديننا من الإسراف والتبذير؟ بل لقد لاحظت تناقضا عجيبا بين ما يقوله المجتمع وما يفعله، فالمجتمع الذي يحرم على الفرد الاستماع لأغنية من جهاز تسجيل يبيح لمجموعة المحتفلات الاستماع والرقص على أغان هابطة.. والمجتمع الذي يدعي المحافظة على العادات والتقاليد ويزدري المرأة التي يظهر وجهها أو نصفه لا يمانع أن ترتدي المحتفلات أزياء الكاسيات العاريات!..

وهالها ما سمعته من أحاديث المجتمع النسائي وقصصهن ورواياتهن؛ لا سيما حين يتناول الحديث المبتعثين والمبتعثات فيرمينهم ويرمينهن — دون يقين ودون تثبت – بالفسق والانحلال والفجور، وأدركت بأم عينيها أن كثيرا من المبتعثات أكثر طهرا ونقاء ممن لا همَّ لهن إلا غيبة المحصنات الغافلات والافتراء عليهن!

عادت إلى كارديف وهي تأسف على ما وصل إليه المجتمع السعودي وتتمنى أن يعود المجتمعَ المسلم المثالي الذي يطبق الدين قولا وفعلا، ويتخذه منهاجا وأسلوب حياة، وأخذت تفكر ماذا ستعمل لو عادت للمملكة عودة نهائية؟!

***

التقت محمد نذير أول ما وصلت، وكان محورَ الحديث أخوها فيصل ومراسم زواجه لكونه أهم وآخر الأحداث التي مرت بعبير وأسرتها في هذا الصيف، فأخذت تحدثه باقتضاب عن مراسم حفل الزفاف، وكيف كان حفلا بهيجا سعد به كل من حضره

وشارك فيه.. راحت تحدثه عن نصف الكوب الممتلئ فوصفت له كيف كان الفصل التام بين الجنسين تطبيقا للشريعة الإسلامية؛ فالنساء احتفلن وحدهن في صالة خاصة بهن، والرجال احتفلوا معا في صالتهم الخاصة، وحمدت الله أن انتهى فضوله عند هذا الحد، فمحمد نذير لديه فضول غير طبيعي للتعرف على الجوانب التراثية والثقافية للشعوب والأمم، ولا سيما ما يتعلق بدولة الإسلام وبخاصة قبلة المسلمين – المملكة العربية السعودية – وفضلا عن ذلك كله فهو مغرم بعبير وحديثها، ولا يشبهه في ذلك إلا كثيِّر حين قال في محبوبته عزَّة:

من الخَفِراتِ البيضِ وَدَّ جليسُها
إذا ما انقضتْ أُحدوثةٌ لو تُعيدُها

تطرق الحديث إلى عادات تعارف الزوجين والتقدم للخطبة في مجتمع محافظ يخلو من أي فرص للتعارف بين الجنسين. وتعجب حين قالت له: إن هناك أعرافا اجتماعية يحافظ عليها الناس محافظتهم على الدين الإسلامي، ومن ذلك ما يسمى بـ (تكافؤ النسب)؛ بمعنى أن ليس كل أبناء المجتمع السعودي مؤهلين للزواج من أية أسرة سعودية! لقد سمع من زملاء له من مختلف الجنسيات وقرأ الكثير عن عادات السعوديين، وتعلم من ذلك كله أن من شبه المستحيل أن تتزوج سعودية بأجنبي؛ لكنه لم يكن يعرف أن السعوديين ليسوا سواء فيما بينهم! وتساءل أين المجتمع من شَرْطَي الدين والخلق اللذين

حددهما الإسلام لكل راغبَيْن في الـزواج مهمـا كـان جنسـهما ولونهما!.

لقد كان يظن أن عبير بهذا الحديث ستفتح له بابـا مـن أبواب الأمل ليطلب يدها؛ لكن حديثها اليوم دفعه – وإن لم تشـعر – مسافة أبعد مما كان يتوقع.. قال لها وكأنه يتفهم موقفها وموقف مجتمعها:

– لولا أني أعرف أنه من غير المعقول أن أطلب يدك لفعلت!

ولأنه لم يفعل فلم تعلق عبير بشيء!!..

انصرفت عبير بعد هذا اللقاء وهي تفكر: لِمَ لَمْ يطلب يدها بالفعل؟ وما أدراه أن المجتمع السعودي طينة واحدة؟ أم أنها هي الـتي لم تبين رأيها فيما يؤمن به المجتمع، ولم توضح أنها على خلاف مـا يراه!.. تُرى لو طلب يدها حقيقة هل كانت ستمانع؟ إنه في رأيهـا رجل كامل المواصفات؛ فيه دين وخلق، وأدب وفكـر، ورجولـة وشهامة، وهي لا يهمها نظرة الأهل والمجتمع فهذه حياتها. وكمـا اختارت لنفسها أن تعيش في بريطانيا؛ فما الذي يمنعها من أن تختـار شريك حياتها بعيدا عن وصاية المجتمع؟! من ذا الذي جعـل تماثـل الجنسية من شروط الزواج؟

ثم أخذت تفكر في أسرتها وكيف تربت مستقلة حرة، وأن أباها لو كان على قيد الحياة لما مانع أبدا؛ بل لأثـنى علـى حسـن اختيارها، ثم اطمأنت إلى أن أمها لا تقل عن أبيها عقلا ورزانة، ولن

تقف أمام رغبتها، وإن وقفت فلديها أخوها فيصل الذي لا يقل عنها استقلالية وفكرا، وهو أعرف الناس بنذير وأكثرهم تقديرا له!

وسرعان ما تنبهت إلى أنها في حلم من أحلام اليقظة!!

***

(19)

في نهاية الخريف تنخفض درجات الحرارة انخفاضا ملحوظا وتبدأ الشمس في الأفول في وقت مبكر عما اعتاده الناس صيفا، فيهجم الليل قبل موعده المعتاد، ويستعجل البرد زيارته للناس قبل استعدادهم له. وقد يكون هذا الأمر ثقيلا على معظم الناس إلا العشاق فإنهم يفضلون الليل على النهار، والشتاء على الدفء حتى وإن جاءا قبل موعدهما.. ومن هؤلاء العشاق عبير ونذير اللذان أنهيا قبل قليل تسجيل حلقة جديدة من برنامجهما التلفازي، وخرجا معا إلى خليج كارديف بعد انقطاع شبه تام منذ لقائهما الأخير بعد عودتها من إجازتها قبل ما يقارب الشهر.. اختارا مطعما على شكل صندوق، تشف جدرانه الزجاجية عن البحر والسماء، ويتسرب إليه ضياء القمر ممتزجا بأضواء المصابيح!

بعد أن جلسا يتناولان شرائح (البيتزا) في الصندوق الزجاجي بدأ نذير الحديث:

– عبير.. لاحظت أنك لم تعلقي على قولي في لقائنا السابق.

= أي قول؟

– قلت لك: "لولا أني أعرف أنه من غير المعقول أن أطلب يدك لفعلت"!.

= بما ذا تريدني أن أعلق؟ أنت تعرف عن مجتمعنا أكثر مني!

– ألا يوجد استثناءات؟ ألا يوجد في المجتمع السعودي من يخرج عن هذه القاعدة؟ أنتِ على سبيل المثال وأسرتك هل تمانعان لو تقدمتُ لك؟!

= يا نذير لدينا مثل عربي يقول: "لكل حادث حديث"!..

– فإني أتقدم الآن إذن!

لم يكن تلميح نذير في المرة السابقة كافيا.. بل كان أشبه ما يكون بمن يضع الحواجز بنفسه أمام رغباته وأمانيه، ويجعل الرفض جوابا سهلا لطلبه.. صحيح أنه تعلم كثيرا من خلال قراءاته وملاحظاته، ووَقَرَ في قلبه ما سجلته ذاكرته مما سمع من زملائه من مختلف الجنسيات؛ لا سيما السعوديين الذين أكدوا له اعتقادهم بوجود فوارق بين الأمم والشعوب.. فوارق فرضها المجتمع لا الدين.. فوارق تجعل من المستحيل زواج فتاة سعودية من هندي، وإن حمل من الجنسيات الأخرى ما حمل.. لكن هذا لم يمنعه من أن يجرب فيطلب يدها رسميا..

المهم أنه الآن فعل، ولذا فقد تبددت مخاوفها، وانزاحت أوهامها وتخيلاتها من أنه لم يكن جادا في رغبته في الزواج منها مما جعلها تنأى بنفسها عنه خلال الفترة الماضية!

وعدته بأنها ستبحث الموضوع مع أسرتها في أول اتصال بها من باب الاستئذان والإعلام ليس أكثر، وإلا فهي تعرف أنها لن تمانع

في أي شأن يخصها ويسعدها، وستحظى من أهلها بالموافقة والمباركة!!

حينما وضعت رأسها على وسادتها استعدادا للنوم بعد هذه السهرة الجميلة التي تُوِّجتْ بهذا الحلم الذي بدأ يدغدغ مشاعرها؛ تصورت فرحة أمها حين تزف لها هذا الخبر السعيد الذي سيحقق حلمها الذي ما فتئت تنتظر تحققه حتى أصابها الملل واليأس من انتظاره، وتصورت سعادة أخيها فيصل بحسن اختيارها، فهو أعرف الناس بنذير وأكثرهم قدرة على تقييمه، وقد يكون هو مفتاح موافقة والدتها وأسرتها لو مانعتا، فقد تعرَّف عليه في أول صيف زار فيه كارديف لدراسة اللغة الإنجليزية، وتوثقت علاقته به بعد ذلك، في زيارتيه لبريطانيا في الصيفين التاليين..

لكن صورة مرت على ذاكرتها فجأة فأزعجتها!.. كانت عبير مع نذير في محادثة على (الماسنجر) في يوم زفاف أخيها يبارك لها زواجه، ويسأل عنه ليهنئه بنفسه فاعتذرت منه بأنه مشغول. لكن فيصلا مر في اللحظة نفسها وفرحت عبير بوجوده فدعته للتحدث مع نذير:

- فيصل.. كلِّم نذيرا!

وأشار فيصل بيده إشارة لا معنى لها سوى الاستهجان قبل أن يجيب:

= من نذير؟ الهندي؟!

ومضى في طريقه!

هذه الصورة قفزت إلى ذهنها فأثارت في نفسها بعض المخاوف وقالت في نفسها:

إذا كان هذا جواب أخيها لمن يبارك له ويهنئه؛ فكيف يكون جوابه حين يأتي متقدما لخطبتها؟!

لكنها سرعان ما صرفت هذا الخاطر من ذهنها وعدته وهما لا أكثر، وعللت تصرف أخيها بانه كان حينها مشغولا جدا!!

***

كانت عبير قد اتفقت مع نذير على قضاء إجازة الميلاد ورأس السنة في إيرلندا الجنوبية، ووعدته بأن تتولى الترتيب لهذا الأمر. وحين دخلت غرفتها في المساء عائدة من الجامعة، وفتحت جهاز حاسبها المحمول (اللابتوب) للبحث عن الرحلات المتوفرة إلى (دبلن) وجدت رسالة إلكترونية من أخيها فيصل يخبرها فيها بأن والدهما في المستشفى منذ بضعة أيام، وأنه لم يُرِد إخبارها بذلك لو أن حالتها تحسنت، لكنها مع الأسف تزداد سوءا.. وبدلا من البحث في الرحلات المتوجهة إلى عاصمة إيرلندا الجنوبية بحثت عن أول رحلة مغادرة للرياض وحجزت مقعدا لها عليها!!

***

(20)

تقدمت السن بأم فيصل، وساءت حالتها البدنية والنفسية، فقد هاجرت الطيور من العش الدافئ واحدا تلو الآخر..

حين فقدت معيلها أبو فيصل كان فيصل في مقتبل الشباب، وكانت اثنتان من بناتها قد تزوجتا، ولكنهما تعيشان في الرياض بالقرب منها. وحين غادرت عبير للدراسة ظنت أنها سنوات معدودة تعود بعدها للاستقرار بجوارها. وكان آخر الطيور المهاجرة هو ابنها فيصل الذي ضحى بالبعثة للبقاء إلى جوار أمه، لكنه بزواجه وخروجه إلى عش الزوجية الجديد مؤخرا شعرت أنها فقدت آخر سهم في كنانتها..

ارتفع ضغط دمها فجأة، ولحسن الحظ كان ابنها فيصل قريبا من المنزل حين اتصلت به الخادمة، فجاء فورا ونقلها إلى المستشفى، وأجريت لها الفحوص المعتادة، وطمأنها الطبيب بأن ما بها ليس أكثر من إرهاق، وعليها أن تبتعد عما ينغص عليها عيشتها ويكدر حياتها ومزاجها.. ولإن مكدرات الحياة ومنغصاتها لم تغادرها فقد عاودها ارتفاع ضغط الدم مرة أخرى وبصورة أشد؛ مما استدعى نقلها للمستشفى وبقاءها فيه للملاحظة..

أم فيصل مؤمنة بالله إيمانا قويا يمنعها أن تتهم شخصا بعينه بأنه وراء إصابتها بمرض أو عين، وإلا ما أسهل أن ترمي أم صالح بكل ذلك كما فعلت ابنتاها، وكما يعتقد ابنها فيصل!

قال لها فيصل:

– أنتِ تحبين أن تظهري نعمة الله عليك عند كل الناس، لكن بعض الناس يا أمي (عيونهم حارة) والمفروض أن تتنبهي لهم، ولا تريهم، ولا تقولي لهم كل ما لديك!

وقالت أخته بعد أن تأكدت أن فيصل قد خرج:

= ونحن يا أمي أسرفنا في عرس فيصل، وفعلنا ما لم يفعله قبلنا أحد من أهلنا وأصحابنا!

***

عادت عبير من كارديف لتجد والدتها قد غادرت المستشفى وبدأت تتماثل للشفاء.. وهاهي تحمل في جعبتها خبر خطبتها من زميلها الهندي، وتعتقد أنه خبر سار؛ بل تظن أن مجرد إعلانه لأمها سيدخل السعادة على قلبها، وسيبرئها من علتها فورا!. إنها تتحين الفرصة المناسبة لإعلانه؛ لأنه مفاجأة كبرى لأمها ولأسرتها وتريد أن تمهد له!

في جلسة صفاء بعد يومين من وصولها، وبعد تماثل أمها للشفاء التفتت إليها وقالت لها:

– أمي.. أريد أن أعرض عليك موضوعا..

فرحت أمها بفتح المجال للحوار، وقالت لها:

= قولي يا ابنتي..

– تعرفت على زميل لي في بريطانيا.. أستاذ معي في الجامعة التي أعمل فيها.. متدين وخلوق.. عرض عليَّ الزواج، ووعدته بأن آخذ رأي أهلي قبل أن أعطيه الجواب النهائي!..

شهقت الأم من الفرحة، وكادت تطلق زغرودة من حنجرتها لولا أن صوتها لم يسعفها، فمجرد أن تفكر ابنتها في الزواج وهي العازفة عنه فهذه نعمة كبرى، ولسوف تحترم اختيار ابنتها لأنها حتما ستختاره بعقلها الذي (يزن بلدا) كما تردد كثيرا. ولم ترد أن تقاطعها بأكثر من دعائها لها بالتوفيق حرصا على سماع خبرها المشوق!

لاحظت عبير ذهول أمها ودهشتها المصبوغة بالفرحة، أو فرحتها الممزوجة بالدهشة، فانتظرت حتى تطلب منها أمها مواصلة الحديث، وكمن استفاق من غيبوبة قصيرة قالت لها بكل لهفة:

= مبارك يا ابنتي.. حدثيني عن هذا الرجل.. من أي منطقة؟ ومن أي قبيلة؟

– هندي مسلم من (حيدر أباد) معه جنسية بريطانية.. جاء للدراسة بعد الثانوية، وحصل على الدكتوراة.....

توقفت عبير عن استرسالها في الكلام لأن والدتها سرعان ما اكفهر وجهها، وأخذ جسمها يرتجف؛ فقد كانت المفاجأة أكبر من أن تستوعبها، وعبير كانت تتحدث وكأنها تسرد حدثا عاديا، بل حديثا سارا!

سرعان ما تحلق أفراد الأسرة بعد أن ارتفع صوت الأم بالنحيب، وأخذ الجميع يحاول أن يعرف من عبير ما الذي حصل لأمهم.. قالت عبير:

– لا أدري.. كنت (أسولف) معها وحصلت لها هذه النوبة!..

وكانت عبير صادقة، فلم تتوقع أن خبر خطبتها هو سبب مشكلتها!!

مضى أسبوع قبل أن تشفى الأم من وعكتها الصحية الجديدة التي سببتها لها الصدمة التي تلقتها من ابنتها عبير. قضت الأم أسبوعا في غرفتها وعلى سريرها وكانت تشتد عليها الحالة كلما دخلت عبير عليها؛ لا سيما إذا انفردت بها، واضطر إخوة عبير إلى إجبارها بأن تخبرهم بالحكاية التي سببت لأمهم هذه الكارثة الصحية فما زادهم قولها إلا استهجانا لها!.

أكثر المستائين كان أخوها فيصل. قال لها:

– أتريدين أن يقول الناس: إنك تزوجتِ سائقنا؟

= ومن هم الناس يا فيصل؟!

– الأهل والجيران والأقارب والأرحام.. أزواج أخواتي.. أهل زوجتي الذين ظلوا شهرين يسألون عنا، وعن أصلنا وفصلنا قبل موافقتهم على تزويجي..

= أنت يا فيصل من يقول هذا؟ كيف سيكون جوابك لو أنك لم تعرف نذيرا وأخلاقه ودينه؟.. لو أنك ما زرت بريطانيا وتعلمت فيها ورأيت كيف يعامل الناس بعضهم بعضا؟!

– أعرفه وأصادقه وأتجول معه موضوع، وأزوجه أختي موضوع مختلف! ألم تري بنفسك كيف انقطعت علاقتنا مع عمي وعائلته منذ أن رفضتِ أن تتزوجي ابنه، وأصررتِ على البعثة؟.. ما ذا سيقولون لو عرفوا هذه القصة؟!

= وهل قدّرك عمك يوم أن رحت تخطب ابنته!!

هنا اكفهر وجه فيصل، و لم يجد ما يرد به على أخته إلا التهديد بأن هذا الأمر لن يتم، ولن تحلم به مهما كانت النتيجة!

***

(21)

كانت عبير قد عقدت النية على الزواج من هذا الهنـــدي، لكنها أحبت لأسرتها ولأمها خاصة أن تبارك هذا الزواج وأن يكون بموافقة الأسرة. وبحكم ما تمتلكه من قوة في الشخصية وإيمان بالرأي لم تكن ترى لأحد عليها سلطة بعد وفاة والدها؛ خاصة أن الـــذكر الوحيد في أسرتها هو أخوها فيصل، وهو يصغرها بتســـع ســـنوات، وهو وإن كان وكيلها الشرعي؛ فوكالته لا تتجاوز الأوراق الرسمية، لكنها تحب والدتها حبا جما، ولا تريد أن تعود إلى بريطانيـــا وهـــي غاضبة عليها، وفي الوقت نفسه لا تريد لأحد أن يؤثر على اتخاذهـــا قراراتها؛ حتى وإن كان الاعتراض من أمها طالما أنها لا تقترف إثما ولا جرما!..

لم تهتم عبير كثيرا بتهديد أخيها، ولم تيأس من إمكانية إقناع أمها أو على الأقل الحصول على رضاها، فبعد أن تماثلـــت والـــدتها للشفاء مرة أخرى أخذت تتحدث إليها كلما سنحت لهما الفرصة، فالصدمة الأولى اجتازتها.. في كل مرة تبدأ عبير الحديث بآية قرآنية، أو حديث شريف، أو قبس من سيرة محمد صلى الله عليه وسلم.

في آخر مرة فتحت حوارها معها انطلاقا من قوله تعالى: (يـــا أيهـــا الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعـــارفوا

إن أكرمكم عند الله أتقاكم) واسترسلت في تفسيرها.. قالت لها أمها:

- يا ابنتي هذا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعصر الصحابة. أين عصرنا من عصرهم وأيننا منهم؟ نحن تحكمنا قواعد مجتمع لا نقدر أن نخرج عنها وإلا صرنا في نظرهم معتوهين!. أتحسبين أنك ستعيشين في الخارج طول عمرك؟ لابد أن ترجعي يا ابنتي وتعيشي في هذا المجتمع، ولذلك لا تقدرين على مخالفة أعرافه؟

= كل شيء بمشيئة الله يا أمي.. خطيبي حريص على الاستقرار في المملكة، وإذا أتيحت له فرصة عمل لن نبقى هناك يوما واحدا!

تفرست الأم في وجه ابنتها وقالت لها:

= صحيح يا ابنتي أنك أعلم مني بشؤون ديننا ودنيانا، لكنا في مجتمع لا يرحم. أنا معك أن البشر متساوون عند الله، ولا فرق بين أبيض ولا أسود إلا بالتقوى، وكم مرة قلت لك إن جدي اغترب في الهند واشتغل حمَّالا في ميناء (بومبي) قبل اكتشاف البترول وتوحيد مملكتنا بحمد الله وفضله. لكننا الآن في زمن تغيرت فيه كل المقاييس وكل المفاهيم، وصار أبناؤنا يفاخرون بأنفسهم – مع الأسف - ويرون الأجنبي أقل منهم مهما بلغ من العلم والثقافة. فكري في الأمر جيدا يا ابنتي قبل أن تقدمي على خطوة تجعلنا محل شماتة من أهلنا ومجتمعنا. هل ستظلين طوال الوقت تدافعين عن نفسك وزوجك، وتعلمين كل من اعترض عليك أو استهزأ بك أو بزوجك بتعاليم ديننا؟!

لم تعلق عبير على كلام أمها لأنها تأكدت أن لا فائدة ترجى من المزيد في هذا الموضوع. وما لبثت أن استأذنت لبعض شؤونها، ولم تفتح هذه السيرة مرة أخرى، فقد أدركت أن لا أحد سيقتنع بوجهة نظرها أو يؤيدها، وفرحت الأم بانسحاب ابنتها من الحوار حتى وإن لم تصل بها إلى حد الإقناع..

***

عدم تقبل أهل عبير للزوج الهندي سيطر على تفكيرها في أثناء الساعات الطوال التي قضتها في رحلة العودة إلى بريطانيا. أخذت تفكر في كل كلمة سمعتها من أمها بكل اهتمام. وبقدر ما أعجبها هدوء أمها ووعيها وتفكيرها البعيد؛ كان حنقها على هذا المجتمع الذي يشعر بالفوقية على شعوب الأرض كلها وهو لا يزيد عنهم في شيء!

أخذت عبير تعيد حساباتها؛ ليس في موضوع الزواج من نذير فحسب، بل بدأت تراجع مسيرتها بدءا من الابتعاث والغربة، فالعمل في المملكة المتحدة والإقامة فيها.. وفجأة ظهرت أمامها صورة أبيها، وتذكرت حزنها عليه الذي تضاعف لأنها لم تشهد وفاته، وتصورت أن أمها تُتَوفَّى وهي بعيدة عنها أيضا، وودت لو أنها تستطيع أن تطلب من قائد الطائرة أن يعود بها؛ على الأقل حتى تنقشع من ذهنها هذه الغمة!!

لم يعد يشغل بالها ما ستقوله لخطيبها.. لن تقول له إنها لم تجد الفرصة الملائمة لطرح الموضوع بسبب مرض أمها، أو أن عائلتها

ما زالت تدرس الموضوع، فلم تتعود الكذب في حياتها.. لن تخجل من أن تقول له إن أسرتها لم توافق على زواجها منه؛ لا لشيء إلا لأنه أجنبي، وأنها تحترم قرارات أسرتها ومجتمعها، ولا طاقة لها بالخروج على قواعده وأنظمته.

ستقول له الحقيقة.. لكنها ستقول له أيضا إنها ستحتفظ له بالمحبة والمودة فضلا عن التقدير والاحترام، وسيبقى خير حبيب وصديق وزميل!..

***

(22)

بعد وصول عبير بيومين دعاها خطيبها إلى عشاء في أحد المطاعم الهندية بناء على معرفته تفضيلها هذا النوع من المطاعم، وكان واضحا منذ التقاها – بل من قبل أن يلتقيها حين كان يحدثها بالهاتف – أن النتيجة لم تكن مرضية.. كان واضحا أن أهلها قد رفضوه، لكنه كان منطقيا وواقعيا، فهو يعرف المجتمع العربي؛ والسعودي على وجه الخصوص، ويعرف أن المجتمع العربي لا يتقبل فكرة زوج هندي فكيف بالمجتمع الخليجي والسعودي تحديدا، لكنه كان يتوقع أن يكون لتعليمها وغربتها وانفتاحها على المجتمعات الأخرى القدرة على تخليصها من قبضة المجتمع والأهل، لا سيما مع تمكن صداقته لأخيها فيصل، وثنائها على وعي أسرتها، وحكمة أمها المتعلمة والمثقفة، ووعدها إياه بألا تعود إلا بموافقة أهلها وتبريكهم..

من أجل هذا لم يشغل هذا الموضوع الكثير من الحوار في هذه الليلة، كما لم يتحدثا عنه بعد هذه الجلسة، فقد كان ما بينهما من حب متبادل ينأى بهما عن كل المنغصات، حتى وإن كان هذا المنغص هو إعلان إيقاف مشروعهما المشترك، على الرغم من أن ما بينهما لم يكن مجرد صداقة عابرة، ولا زمالة مؤقتة؛ بل حبا متمكنا؛ ذاقا حلاوته وطعما فنونه بضع سنوات، وكان من الممكن أن يتوج بخاتمة

كل حب سوي؛ بالزواج! لكن حين وقفت تقاليد المجتمع حائلا بين بلوغ الحب غايته تعاهدا أن يظل هذا الحب قائما بينهما ما حييا!!

سأل نذير عبير في هذه الجلسة الشاعرية:

– ما تعريف الحب عندك؟

= مشاعر جياشة تملأ جوانح الإنسان فتجعل كل تصرفاته مبنية على توجيهاتها.

– وما أهم ما على الحبيب توفيره لحبيبه؟

عدَّدَتْ عليه أمورا كثيرة، إلى أن قالت:

= يحرص على أن يؤمِّن لحبيبه ما يحقق به سعادته!

هنا قاطعها نذير قائلا:

– أجل.. حتى ولو كان ما يريح الحبيب مؤذيا للمحب! تعرفين يا عبير كم بيننا من حب خالص.. حب (عذري) كما تسمونه في بيئتكم العربية، وفي دواوين شعرائكم!.. المحب يا عبير ليس أنانيا، ولذلك حين يرى أن راحة محبوبه في الابتعاد عنه فعليه تحقيق هذه الرغبة. هذا ما أؤمن به.. ولذلك سننهي التفكير في موضوع شغلنا مدة طويلة وهو موضوع الزواج، وسنؤمن معا أن حرماننا من تحقيقه قدر الله، وليس لنا خروج عن أقداره. لكن لا تحسبي أن حبنا سيقف هنا؛ فما بيننا من حب لن ينتهي أبدا. سأظل معك دوما بجسمي وعقلي وقلبي، وسأبحث في دروب الخير لأدلك على أقصرها وأسهلها.. وإن فرقَنا الزمن فسأصوب نظري إلى طرق السعادة لأتأكد أنك تسيرين بخطى ثابتة فوقها!.

دهشت عبير من كلامه المختلف والجديد عليها، ولو أنها كانت في فورة مراهقتها إبان سني دراستها الجامعية لعدت كلامه هذا صفعة في وجه علاقتهما، ولذا كان ردها:

= سيكون حبا خالصا لأنه خال من أي غرض!

- فليكن!

***

منذ أن وطئت أقدامها الأراضي البريطانية آمنت بالحب الشامل: حب العلم والتعليم والتلاميذ والتلميذات والزملاء والزميلات؛ حب الخير للناس كلهم بمختلف طوائفهم وجنسياتهم وأديانهم، بل حب الطبيعة من جبال وأشجار وأنهار وبحار ووحوش وأطيار.. لكنها الآن اكتشفت - أو تعلمت من نذير — هذا الحب النقي الخالي من أي هدف!

بدأت عبير تعيد حساباتها من جديد. هل من المنطق أن تغلِّب العاطفة دائما في شؤون حياتها، وتهمل نداء العقل؟ هل من المنطق أن تبقى فتاة سعودية بعيدة عن أهلها ووطنها مهما وجدت من التسهيلات والحياة العلمية والعملية المريحة؟ كيف تقضي عمرها في الغربة بعيدة عن أهلها ووطنها؟ كيف تبعد عن أمها وهي في أمس الحاجة إليها في هذه السن، وبهذه الحالة الصحية المتردية؟! لقد حققت أكثر مما كانت تطمح إليه، ووصلت إلى مكانة عالية، ومثلت بلادها في الكثير من المناسبات العلمية والمحافل الثقافية، وحُقَّ لها أن تعود لتقدم ثمرة ما نالته من علم وخبرة ومعرفة لأبناء مجتمعها الذين

هم في أمس الحاجة لجهودها وعلمها وخبرتها.. حتى الحب الذي حُرِمت منه في مطلع حياتها هاهي تنال منه قسطا وافرا!

***

وعلى الرغم من إلحاح العديد من المؤسسات العلمية التي عملت فيها؛ إلا أنها اتخذت قرارا حاسما لا رجعة فيه!.. قررت العودة إلى الوطن مع نهاية العام الدراسي، وانتهاء عقدها مع الجامعة، لكنها فضلت أن تحجب هذا القرار عن أهلها لحين عودتها إليهم حتى تحتفظ لنفسها بخط الرجعة لو اتضح لها أن القرار أقوى منها و لم تستطع تنفيذه!

السؤال الذي لم يجد في رأسها جوابا حاسما: هل كان لفشلها في الزواج من نذير دور في قرار العودة إلى أرض الوطن؟! وهل هو ردة فعل كما كان قرار هجرتها إلى بريطانيا ردة فعل؟ وهل ستظل تهرب من واقعها وبيئتها كلما عجزت عن تحقيق هدف ما؟.. أجابت وفي إجابتها الكثير من مغالطة النفس:

– لا.. لقد فكرت في العودة إلى الوطن منذ زمن!

***

(23)

استقرت الدكتورة عبير في بيت أسرتها، وانضمت إلى هيئة التدريس في جامعتها التي تخرجت منها في الرياض، وبدأت بالتكيف مع الحياة الجديدة.

لم تكن المهمة يسيرة؛ فقد غابت عن الوطن ما يزيد عن عشر سنوات تغيرت فيها خارطة الرياض، فقد تضاعفت مساحتها مرتين أو ثلاثا، وتباعدت المسافات وازدادت زحمة المواصلات، وتبدلت أخلاق الناس وعاداتهم وتقاليدهم، فغدوا متجهمين غير مستعدين للتسامح والتعامل بعفوية كما كانوا من قبل. أما انقطاع العلاقات بين الجيران والأقارب وعدم التواصل فيما بينهم؛ فلم يكن يعني لها شيئا، إذ لم تكن حريصة على هذه اللقاءات لأنها لم تر فيها سوى مجالس للغيبة والنميمة، فضلا عن الوقت والجهد المهدرين فيما لا فائدة ترجى منه!

كان أهم ما يقلقها صعوبة التحرك من مكان لآخر فالاعتماد كان على سائق البيت الوحيد، لكن قدرته ووقته محدودان، ومزاجه ليس دائما على ما يرام.. فلكي تذهب للجامعة عليها أن تخرج في وقت مبكر جدا ليتمكن السائق من إيصال صغرى شقيقاتها إلى مدرستها الثانوية التي تدرس فيها قبل أن يتوجه بها إلى الجامعة.

وتضطر للتأخر في العودة إلى أن ينتهي السائق من إعادة أختها إلى البيت أولا، وفي هذا هدر كبير لوقتها الثمين. وإن اضطرت للانتقال من الجامعة إلى مركز من مراكز البحوث أو إدارة حكومية أو خاصة أو مكتبة عامة فهذا موضوع آخر يحتاج إلى ترتيب مسبق مع السائق، أو إلى الاستعانة بسيارات الأجرة التي لا تسر الحال.

والشيء الآخر الذي أزعجها بعد عودتها المستوى الفكري؛ ليس لطالباتها فحسب بل حتى لبعض عضوات هيئة التدريس اللائي لا يساعدنها على إيجاد جو علمي، فكل أحاديثهن عن حفلات الزفاف التي حضرنها، والموضات والأزياء والسفرات في الإجازات، حتى أحاديثهن عن المؤتمرات الخارجية التي شاركن فيها لا يتجاوز الحديث عن معالم البلد، ومواقف صادفنها في الرحلة، وما جلبنه من هدايا للأهل والأصدقاء..

ولو حاولت الابتعاد عنهن وعدم مشاركتهن في هذه المجالس (الشعبية) فالجامعة لا يتوفر فيها أماكن لاستغلال هذا الفراغ الكبير؛ فالمكتبة غير مهيأة للقراءة والبحث، والطالبات مصابات بالرهبة من مدرساتهن؛ فلا يحضرن لمناقشتهن أو الاستفسار عما أشكل عليهن، ولم يكن لها معارف من عضوات هيئة التدريس سوى زميلتها أيام الدراسة الجامعية إيمان، وهذه لا تختلف في فكرها ولا في سلوكها عن خالتها أم صالح!

***

تشبثت بها إيمان منذ التقتها في الجامعة، وأصرت على أن تحتفل بعودتها وأن تدعو صديقتهما نادية، فاضطرت عبير لقبول دعوتها. وفي الغد أعلمتها إيمان بأنها قد حددت ليلة الجمعة القادمة لإقامة هذا الاحتفال، وسلمتها مخططا لموقع الاستراحة التي ستقام فيها المناسبة.

وصلت عبير بعد مشقة إلى الاستراحة في التاسعة ليلا، و لم يكن قد وصل أي من المدعوات.. لم يكن هناك سوى إيمان التي كانت تشرف على العمال وهم يرتبون طاولات (البوفيه) المفتوح، فتركتهم لتستقبلها بكل ترحاب، وتشكرها على تلبية الدعوة ووصولها المبكر!

قالت عبير:

– ما شاء الله تبارك الله.. هذه الاستراحة لكم؟

= لا.. هذه استراحة مستأجرة.

سألتها عبير ببراءة:

– ولِمَ لم تعملي اللقاء في منزلكم العامر؟ أعرف أنه كبير وواسع. لِمَ التبذير؟

ضحكت إيمان وقالت:

= الناس تغيروا يا عبير. ما عادوا يقيمون المناسبات في بيوتهم. إما في استراحة يملكونها، أو استراحة يستأجرونها. وغالبا ما يكون لكل (شلة) استراحتهم الخاصة.. نحن مثلا استأجرنا هذه الاستراحة ليلة

الجمعة من كل أسبوع على مدار العام نجتمع فيها؛ نـــرقص ونغـــني ونفرح.. سترين الليلة بنفسك وتعرفين زميلاتك على طبيعتهن!

– وأين المدعوات إذن؟ الساعة تعدت التاسعة..

ردت عليها بابتسامة:

= تحتاجين إلى وقت حتى تعتادي مجتمعنا. مجتمعنا تغير كثيرا يا عبير كما قلت لك.. من الساعة العاشرة يبدؤون في التوافد.. الليل طويل وسنسهر إلى الصباح!

لم تحاول عبير الاعتراض أو إبداء وجهة نظرها، فقد تأكدت من أنها غريبة عن هذا المجتمع، لكنها أخفت في نفســـها حســـرة مكبوتـــة، وقالت في سرها:

إذا كان هذا تفكير صفوة المجتمع وسلوكهم – الأستاذات الجامعيات – فكيف بمن هم دون ذلك؟!

أدركت إيمان أن وجود عبير إلى جانبها قبل توافد الزميلات فرصة لسؤالها عن تفاصيل حياتها ومشروعاتها، وعلى وجه الخصوص تأخرها في الزواج، لكن عبير كانت الأسبق في فتح موضوع إنجـــاب إيمان.

بدأت إيمان تشرح لصديقتها عبير حكايتـــها مـــع الذريـــة ومحاولات خالتها أم صالح البحث لابنها عن زوجة أخرى، وعرَّجت على نيتها وزوجها في تربية أحد أبناء دور التربية الاجتماعية، وكيف أن خالتها أم صالح عارضت المشروع معارضة شديدة مما جعل سبيله الوأد قبل بدايته. وتأسفت عبير إذ اكتشفت مجالا آخر من مجـــالات

التناقض بين القول والفعل في هذا المجتمع.. التناقض الصارخ بين التظاهر بالدين وتطبيقه حقيقة، وإلا فأين ذهبت توصيات المصطفى صلى الله عليه وسلم بكفالة اليتيم والجزاء العظيم الذي ينتظر المقدمين عليه؟!

وكأنما أرادت إيمان أن تخرج من هذا المجال البغيض على قلبها، وتطمئن على صديقتها فسألتها:

- أنتِ ما زلتِ عازفة عن الزواج يا عبير؟

= من قال لك ذلك؟ كل ما في الأمر أن الله ما قسم....

واضطرت عبير لقطع الحوار بعد أن بدأت الزميلات في التوافد على الاستراحة، وقد كان واضحا من زينتهن وحليهن أن الحفل سيكون صاخبا وساهرا، وأنها هي الوحيدة التي لم تكن تعلم ماذا تعني دعوة أو وليمة أو (عزيمة) في اللغة المعاصرة!. لقد ظنت أنها ستكون ضيفة شرف في لقاء تربوي يضم عددا من الزميلات الأكاديميات، وربما أتيحت لها الفرصة للحديث عن تجربتها الثرية في المملكة المتحدة!

"سترين الليلة بنفسك وتعرفين زميلاتك على طبيعتهن"!

قالتها إيمان قبل ساعة، لكن عبير لم تدرك معناها إلا الآن، فقد رأت وجوها غير التي عرفتها في الجامعة، ولغة لا تدري إلى أي قاموس تنتمي؛ فلا هي بالمثقفة ولا الأمية، ولا هي لغة مراهقات ولا لغة ناضجات، لكن الرقص على أنغام الـ (دي جي) كان هو اللغة المشتركة!

في وسط الزحام تاهت صديقتها نادية التي تعرفت عليها بصعوبة بسبب ما أثقل وجهها من (المكياج)، وعلى الرغم من أنها كانت في شوق شديد للحديث معها وسؤالها عن أحوالها؛ إلا أنها لم تحظَ بالحديث معها بسبب هذا الجو الصاخب..

صدقت إيمان حين قالت لها في بداية حضورها:

"تحتاجين إلى وقت حتى تعتادي مجتمعنا"!

ترى كم ستحتاجين يا عبير من سنوات حتى تستطيعي أن تعيشي مع هؤلاء بسلام؟! حتى تستطيعي أن تكوني واحدة منهن.. من سرب القطيع!

هكذا تتساءل عبير في داخلها وهي تعتذر بأنها مجهدة في كل مرة تُطلب إلى حلبة الرقص!..

***

(24)

في مستهل الأسبوع الجديد وفي مكتب عبير جلست إيمان بعد أن ألقت عليها تحية الصباح وكأنها تستطلع رأيها في الحفلة التي أقيمت على شرفها، ومن باب المجاملة شكرتها عبير وأثنت على كرمها وذوقها. قالت إيمان:

– لقد سجلناك عضوة في شلتنا.. شلة الأنس!

ابتسمت عبير وقالت لها:

= أنا إلى الآن ما تعودت على مجتمعكم.. اصبري قليلا وستريني أحرص منك على الشلل.

هذا جزء مما دار من حوار بين إيمان وعبير في مكتب الأخيرة، أما في المكاتب الأخرى فكانت الدكتورة عبير هي موضوع حديث عضوات هيئة التدريس اللاتي حضرن الحفل الذي أقيم على شرفها ليلة الجمعة الماضية، وكن يتحدثن عنها بإشفاق، فقد تأكد لهن ما كُنَّ يرددنه عنها من أنها (معقدة)، بل إن بعضهن أشاع بأنها لم تعد إلى الوطن إلا لأنها لم تستطع التعايش مع المجتمع البريطاني المنفتح!..

قالت إحداهن: عشر سنوات في بريطانيا ما تعلمت الرقص؟

وقالت أخرى: الرقص يحتاج إلى شريك، وهي ما عندها شريك!

وقالت ثالثة: أتصدقون أنها لا تعرف الرقص؟ ربما لم يكن هذا (الجو) مشجعا لها على الرقص، أو أن أغانينا لم ترق لها!

***

في نهاية الأسبوع التقت إيمان بعبير في مكتبها، وقالت لها:

– ليلة الجمعة القادمة عندنا حفلة.. هذه المرة ستحضرين بصفتك عضوة لا ضيفة شرف!

= دعيك من ها الموضوع الآن. عندي لك موضوع أهم سأحدثك عنه.

– تفضلي.

= تعرفين أن الكثيرات منا يشتكين من عدم ممارسة الرياضة بسبب عدم وجود أندية رياضية، ويشتكين من قلة اللقاءات الثقافية بسبب قلة الفرص التي تتاح للمرأة فيها المشاركة.. خطر في بالي فكرة، وهي أن نستأجر استراحة على مدار العام مثل استراحتكم، ونجهزها بمسرح وصالة رياضية ومكتبة صغيرة.

قاطعتها إيمان ضاحكة :

– تعنين أن نؤسس ناديا ونقول إنه : "رياضي – ثقافي – اجتماعي" كما هو شعار أنديتنا الرياضية كلها؛ أقصد أندية الشباب؟! مَنِ الإدارة اللي تعطيك الترخيص اللازم لمثل هذا المشروع؟

= وأنتن هل عندكن ترخيص لإقامة حفلات نهاية الأسبوع من أية جهة؟! لا نحتاج إلى أي ترخيص، والمشروع الذي أفكر فيه ليس ربحيا ولا مفتوحا للجميع، والعضوات هن اللائي يمولنه.. سيكون لنا

لقاءات أسبوعية لندوة فكرية أو ثقافية، ومرة نقيم أمسية شعرية أو قصصية، ومرة نعرض فيلما علميا أو ترفيهيا، وبقية أيام الأسبوع يكون النادي مفتوحا للعضوات لممارسة نشاطاتهن الرياضية في المسبح أو الصالة أو المكتبة..

– فكرة رائعة يا دكتورة!

= فكري معي يا إيمان، فالموضوع يستحق الاهتمام والتفكير.. أنا لا أعرف قيمة الإيجارات هنا، ولا تكلفة التأثيث ولذلك سأعتمد عليك – بعد الله – في عمل ميزانية للمشروع، وسنكون أنا وأنت ونادية أول ثلاث عضوات!.

ذهلت إيمان من عبير كيف تفكر، واستصغرت نفسها وشأنها وزميلاتها اللائي لم يخطر في بالهن مثل هذه المشروعات، ولذا خجلت أن تقول لها:

"اتركي لنا ليلة الجمعة لنقيم فيها حفلنا الأسبوعي"!

لكن عبير كانت تعرف فيم تفكر إيمان وزميلاتها فقالت:

= ونقيم حفلاتنا وسهراتنا إذا صارت مناسبة لأي عضوة!

أخذت إيمان الموضوع بجدية تامة، وتسلمت راية الدعوة إليه، وكانت أول من ناقشته معها صديقتهما نادية التي رحبت بالفكرة، وبدأتا – إيمان ونادية – في جمع المعلومات عن التكلفة، وأعدتا بيانا بالميزانية المحتملة لهذا المشروع؛ عرضتاه على عبير التي درسته معهما.. شكرت جهودهما، وقالت لهما:

= نحن الآن ثلاث عضوات، ونحتاج حتى يقوم المشروع على ساقيه إلى سبع عضوات أيضا، فإذا صرنا عشرا بدأنا التنفيذ الفعلي، وأنتما تعلمان أني أقلكما حظا في العلاقات الاجتماعية، ولذلك سيكون اعتمادي عليكما – بعد الله – في إكمال النصاب.

بدأ كل من الصديقات الثلاث في الاستعداد لإنشاء النادي بالخطوة الأولى، وهي البحث عن مقر مناسب في منطقة تعج بالاستراحات في شرق الرياض، لكنهن أصبن بالإحباط من أول خطوة.. إحباط من شأنه أن يئد المشروع وهو لم ير النور بعد!..

أخبر كل أصحاب المكاتب العقارية الذين يتولون تأجير الاستراحات كلا من نادية وإيمان بأن المرأة لا يحق لها أن تستأجر سكنا أو استراحة! وأنه في أضيق الحدود وعند الحاجة الماسة يمكنها ذلك، ولكن عن طريق (معرِّف) بها و(كفيل) يكفلها.. هذا بالنسبة للسكن أو الاستراحة من أجل الترفيه، أما إقامة النشاطات الثقافية والاجتماعية في الاستراحة فنصحهما أهل الاختصاص من العقاريين – بعد أن يجدا من الرجال من يستأجر لهما باسمه، أو يعرِّف بهما ويكفلهما – ألا يفصحا عن مثل هذه النوايا والأفكار لأحد، وألا يتحدثا عن كنه النشاط المقام داخل الاستراحة!

لم تصدق عبير – وهي تستمع من إيمان ونادية إلى نتيجة جولتهما على المكاتب العقارية – أن تصل الأمور للتعامل مع المرأة إلى هذا الحد من عدم الثقة والاستخفاف!.

قالت إيمان: لنبحث عن أحد أقارب العضوات ونستأجر الاستراحة باسمه، أو نبحث عمن يؤجرنا استراحته من دون عقد..

وردت نادية: ومن عنده الاستعداد من الرجال لهذه المسؤولية؟ أنا على سبيل المثال لا أقدر حتى على مفاتحة زوجي بمثل هذا الطلب. أتستطيعين يا إيمان أن تطلبي من زوجك أن يستأجر لنا أو يكفلنا؟!

هزت إيمان رأسها كناية عن النفي..

قالت عبير بحرقة: إذن اتركا التفكير في هذا المشروع. لا يمكن أن نحمل غيرنا تبعاتنا!..

***

(25)

شعرت إيمان بالحاجة إلى من تتحدث معه في البيت، فزوجها المهندس صالح – بحكم عمله – كثير الغياب عن البيت، وإخوة صالح وأخواته انتقلوا إلى بيوت مستقلة بعد زواجهم وزواجهن. كما بدأت تشعر بالذنب لمقاطعتها خالتها، فمهما يكن الأمر فإن ما عملته هو من باب الحرص على رؤية ذرية أبنائها قبل موتها كما هي رغبة كل الآباء والأمهات، وهي رغبة مشروعة.

ومما زادها حرصا على إعادة العلاقة بينها وبين خالتها إلى سابق عهدها أنها لم تعد تحظى بأخبار المجتمع كما كانت تتلقاها أولا فأولا. قالت إيمان في نفسها:

أنا التي ابتعدت عن الحديث مع خالتي و لم أعد كما كنت من قبل مستودع أسرارها ومحط ثقتها، ولذا حجبتْ عني كافة الأخبار.. إذن ما علي إلا أن أتقرب منها من جديد!

أقبلت الخادمة الأندنوسية تحمل صينية الشاي ووضعتها على الطاولة المواجهة للأريكة التي استلقت عليها أم صالح في الصالة. اقتربت إيمان من خالتها وجلست على (الكنبة) المقابلة لها، وقالت لها:

– ما رأيك في (بيالة) شاي يا خالة؟

شكرتها، وقالت:

= تعملين خيرا يا ابنتي. وما يدريكِ أن رأسي يعاني من الصداع!..

ونهضت أم صالح حتى استوت جالسة سعيدة بتلطف إيمان معها.. مدت إليها إيمان (بيالة) الشاي، وتناولت هي أخرى، وحين رفعتها إيمان إلى فيها لاحظت أن الشاي خال من السكر تماما، فظنت أن الخادمة نسيته، فنادتها:

- (وجاتي).. هل نسيتِ أن تضعي السكر في الشاي؟..

= لا.. ماما طلبت الشاي بدون سكر!

وهنا التفتت إلى خالتها:

- سلامات يا خالة. منذ متى تشربين الشاي من غير سكر؟

= منذ يومين.. منعني الدكتور لما لاحظ أنه مرتفع عندي؟!

- ما ترين بأسا يا خالتي. لا تخافي.. ثلث الشعب السعودي مصاب بالسكر.

أحضرت الخادمة (سكرية) وملاعق صغيرة، فتناولت إيمان قدرا يسيرا منه، وأخذت أم صالح رشفة من بيالتها فوجدت الشاي غير مستساغ، فأضافت إليه ملعقة صغيرة، وحركتها وهي تقول:

= الأعمار بيد الله.. لا أحد يموت قبل يومه!

وبدأت إيمان الحوار قائلة:

- سلامتك يا خالتي.. لو نجح مشروع النادي الذي فكرنا فيه كنا سجلناك عضوة لتمارسي النشاط الرياضي وتشفي من السكر والسمنة بإذن الله!.

= أي ناد؟! ومن أنتن اللواتي فكرتن في إنشائه؟ لم يبق إلا النساء ينشئن أندية!

– أتدرين أن عبير رجعت واستقرت هنا، وتشتغل معي في نفس الجامعة؟

= الحمد لله على سلامتها.. لا والله ما أدري.. من يخبرني إذا لم تخبريني؟! تعرفين أنني لم أعد أخرج كثيرا كما كنت من قبل.. صارت الحركة تتعبني!.

وبدت سعيدة لانتهاء قطيعتها مع إيمان، فأرادت أن تعبر عن رفع الكلفة بينهما، فأضافت ضاحكة:

= أنتِ وكالة الأنباء المحلية!..

وسرت إيمان من عودة خالتها إلى (قفشاتها) التي كانت تزين حديثها قبل السحابة العابرة في علاقتهما، وأحبت مجاراتها في مزاحها، فردت عليها:

– وأنتِ كالة الأنباء الخارجية!

وضحكت العجوز هذه المرة من قلبها حتى اهتز بدنها كله، وواصلت حديثها:

= وماعلاقتها بالنادي؟ أم أنها أتت بالفكرة من بريطانيا؟.. هذه نهاية بناتنا إذا تغربن..

– صحيح يا خالة.. هي صاحبة الفكرة، لكنها فكرة ممتازة ومعقولة.. والله إنا في حاجة ماسة لمثل هذه الأندية..

= أظنها لم تتزوج حتى الآن؟! هذا ما يأتي به الفراغ يا ابنتي.. لو أنها تزوجت لاهتمت ببيتها وزوجها وأولادها، وما وجدت فراغا تقضيه في الأندية، ولا فكرت في مثل هذه الأفكار الشاطحة!

– صحيح يا خالتي لم تتزوج بعد. ألديك عريس لها؟

= ما أكثر العرسان.. "كثر الهم على القلب" كما يقولون في المسلسلات! هل تنوي العرس؟

– يبدو أن ما عندها مانع لو جاءها من يستحقها.

وكأن أم صالح لم تصدق ما سمعته، فقالت باهتمام:

= من قال لكِ هذا؟ هل سألتِها؟

– سألتها ذات مرة، لِم لَمْ تتزوجي حتى الآن؟ قالت: ما أراد الله!

= يرزقها الله إن شاء الله.. أخبريني الآن ما قصة النادي؟

وأردفت وهي تضحك :

= درجة ممتازة وإلا أولى؟

– أردنا أن نستأجر أنا وعبير ونادية وبعض زميلاتنا في الجامعة استراحة نجتمع فيها، ونعقد فيها محاضرات وندوات، ونقيم فيها حفلاتنا كالعادة، وفي الوقت نفسه يكون فيها مسبح ومضمار مشي، وأجهزة رياضية.. (سيكل) ثابت وسير جري..

= فكرة معقولة.. ألا تحتاجون إلى عاملة لتجهيز الشاي والقهوة والحلويات؟ وظفوني عندكم!

– عزيزة وغالية يا خالتي.. لو تمت الفكرة ستكونين عضوة في النادي حتى تمارسي الأنشطة الرياضية..

= وما الذي منعكن من إكمال المشروع؟

– التعقيد.. تصوري أن أصحاب المكاتب العقارية قالوا لنا إن (الحرمة) لا تستأجر بيتا أو استراحة إلا بمعرّف وكفيل، أو يكون عقد الإيجار باسم رجل!

= هذا الذي منعكن؟ أمهليني لعلي أجد لكن حلا!

– قول وفعل يا خالة!

استأذنت إيمان من خالتها، واتجهت إلى غرفتها، في حين سرحت أم صالح في موضوع عبير، وسألت نفسها:

لِمَ لا تبحث لها عن عريس مناسب ما دامت قد رجعت واستقرت؟ لِمَ لا تجرب حظها؟ إنها لن تخسر شيئا، وإن استطاعت أن توفق بين رأسين بالحلال فليس لها إلا الأجر من الله، فضلا عن مكافأتها المادية..

وراحت تستعرض الملفات المخزنة في ذاكرتها!!

***

(26)

تذكرت أم صالح صاحب مكتب عقاري كانت قد توسطت له في زواج مسيار؛ لديه استراحة تصلح لمشروع عبير وزميلاتها.. اتصلت به، وسألته في البداية عن أحواله، وعن أمور زواجه:

– خيرا يا أم صالح. ماذا لديك؟ أعرفك لا تتصلين إلا لأمر هام وعاجل!

= أكيد يا أبا محمد.. تعرفني.. وقتي ثمين ولا أضيعه من دون فائدة.. ألا تريد زوجة جديدة؟!

ضحك أبو محمد حتى ابتعد فمه عن لاقط الهاتف، وصارت لا تسمعه.. ثم عاد ثانية ليقول:

– قول وفعل يا أم صالح.. الآن واحدة وما سلمنا من استجواب أم العيال! كلما تهيأت للخروج: "إلى أين؟ ماذا لديك"؟ وإن تأخرت: "أين كنت إلى هذا الوقت"؟!..

= المهم.. استراحتك مؤجرة أم خالية؟

– اشتغلتِ في العقار أيضا؟! خرج المستأجر السابق منها ورممتها ورتبتها وغيرت بلاط المسبح، والآن هي معروضة للإيجار. لماذا تسألين؟ عندك مستأجر؟!

= أنا و(شلتي) نريد أن نستأجرها مدة سنة!..

وقهقه أبو محمد قبل أن يقول:

– صارت (الحريم) تستأجر استراحات؟! الاستراحة وصاحب الاستراحة تحت أمرك.. أحضري لي صورة بطاقة مَنْ سنكتب باسمه العقد، أو هاتي من يعرِّف بك ويكفلك.

= وأنت يا أبا محمد ألا تعرفني وتكفلني؟!.. مالي إلا الله ثم أنت.. أنت كفيلي يا أبا محمد!..

– الله لا يحرمك من أهلك وربعك.. ألا يوجد من يكفل أية واحدة منكن؟

= يا أبا محمد هؤلاء نساء، وأزواجهن لا يرضى أحدهم أن يكون العقد باسمه أو تحت مسؤوليته. وإذا لم يكن لديك مانع استأجرناها من غير عقد، وكأنها استراحتنا الخاصة.. لا أحد يسأل!..

– وإذا ارتفعت أصواتكم واشتكى الجيران منكم، أو داهمتكم (الهيئة) هل أتحمل مسؤوليتكم؟!

= ولِمَ تأتي إلينا الهيئة يا أبا محمد؟ أتظننا (ساقطات) سامحك الله؟ ألا تعرفني يا أبا محمد؟

– أنتِ والنعم.. لكن صاحباتك ما أعرفهن.

= كلهن أعقل مني! (تضحك وهي تضيف): أم تريد مني أن أخبر أم محمد بزواجك المسيار؟!

– لا.. ما لك إلا ما يرضيك.. لا تورطيني مع أم محمد! اسمعـــي.. ولدك الصغير (ماجد) كم عمره؟ ألم يتجاوز الخامسة عشرة ويحمـــل هوية؟ هاتي لي صورة هويته، وأعمل العقد باسمه وأوقع نيابة عنه..

= غدا آتي لك بصورة من هويته إن شاء الله..

وقبل أن تغلق سماعة الهاتف؛ قالت بلهجة جادة:

– لا تنس سعيي!

***

لم يمض سوى وقت قصير حتى أصبح النادي ماثلا للعيـــان يعتمد اعتمادا كليا على عضواته العشر الـــدائمات، ويـــدعى إليـــه الزميلات في كل مناسبة ثقافية. أما أم صالح فبعد مساهماتها الفعالـــة وتذليل أكبر المصاعب وهو إيجاد المقر فقد حظيت بتقـــدير الجميـــع وتكريمهن، حتى نادية التي توترت علاقتها بها رأت أنها لا تســـتحق كل هذه الغضبة وأن المسامح كريم؛ خاصة أن إيمان قـــد ســـامحتها وانتهى ما بينهما من خلاف!

في ليلة افتتاح النادي تحدثت الدكتورة عبير في كلمة ضافية عن أهداف المشروع وكيف انبثقت الفكرة من خلال حفل تكـــريم أقيم لها بمناسبة عودتها من بريطانيا، وانضمامها إلى عضـــوات هيئـــة التدريس بالجامعة؛ بعد أن رأت الشح واضـــحا للعيـــان في وجـــود الأندية الثقافية النسائية، وقلة فاعلية الموجود منها، واستبعاد العنصـــر النسائي أو تهميشه، ورأت أن الحاجة ماسة إلى ناد يجمع المثقفات في

حوارات فكرية مثمرة. وشكرت زميلتيها نادية وإيمان على تلقف الفكرة منها والعمل على تنفيذها بأسرع وقت.

كما شكرت أم صالح وأثنت على جهودها، وأن النادي مدين لها بتسهيل مهمة إيجاد المقر، وطلبت موافقة العضوات على منحها العضوية الشرفية، واعتذرت للجميع عن قبول أية عضوية جديدة، لكنها أعلنت أن القائمات على النادي يتشرفن بحضور المهتمات ومشاركتهن. ولذا سيتم إعلامهن بأي نشاط يقام فيه.

***

(27)

تعرفت أم صالح على طبيب تأخر بـــه الـــزواج لظـــروف الدراسة، ثم العيادة الخاصة التي افتتحها، وقد وفق في جمع ثـــروة لا بأس بها. ورأت أنه أنسب ما يكون لعبير.

وعلى الرغم من أنها أصبحت ترى عبير كل يوم تقريبـــا في النادي وتتحدث إليها بكل ود واحترام؛ إلا أنها لم تجد الجرأة لمفاتحتها في موضوع الخطيب الذي لديها، فقد ظنت أن عبير قد لا تلقي بالا لها ولا لعرضها، لما تعرفه عنها من قوة شخصيتها وتعليمهـــا العـــالي وثقافتها المختلفة، فرأت أن خير من تستعين به لنقل رغبتـــها هـــي صديقتها إيمان، خاصة أن علاقتها بها تحسنت كثيرا بعـــد الخـــلاف العارض، فانتهزت الفرصة حين جلستا تحتسيان الشـــاي في صـــالة المنزل لوحدهما:

– يا بنتي إيمان.. ألم تقولي لي إن عبير لم تتزوج بعد؟

= بلى قلت. عندك أحد؟

– نعم يا ابنتي. عندي زوج (لقطة) كأنه (مفصّل) لها، ولا يســـتطيع أحد مفاتحتها في مثل هذا الموضوع غيرك!..

و لم تجد إيمان أي حرج في أن تتبسط بالحديث مع خالتها بعد عودة المياه إلى مجاريها، وبخاصة أن هذا الطلب الغريب اضطرها لأن تقهقه وهي تقول:

= أتنوين تعليمي أصول المهنة؟!

– أية مهنة؟!

= مهنة الخطابة..

لدى أم صالح حساسية من وصف ما تقوم به من الوساطة بين طالبي الحلال بأنه مهنة، ولذلك أغضبتها هذه المقولة، لكنها حاولت إخفاء غضبها خشية أن تفقد وساطتها في هذه المهمة، فراحت تقول في تودد:

– أي خطابة الله يهديك؟ أنا خطابة؟! أنا والله ما قصدي غير مصلحتها. ولأنها صديقتك أحب لها الخير كما أحبه لك!..

اعتذرت إيمان بلباقة بأن الدكتورة عبير ليس من السهل إقناعها بمثل هذا الأمر، وكادت تقول لها إنها تهزأ بطريقة الزواج التقليدي؛ وخاصة إذا تم بواسطة خطابة فخشيت أن تثير خالتها أكثر.

بعد فشلها في إقناع إيمان بالقيام بدور الوساطة ومساعدتها رأت أن يكون تعاملها مباشرة مع والدة عبير؛ فهي أكثر حرصا على مستقبلها. ومما شجعها على ذلك حسن استقبالها لها ليلة زفاف ابنها فيصل، إذ لا تزال صورتها ماثلة أمام عينيها وهي تستقبلها بكل بشاشة وترحاب، وتسأل عنها وعن أولادها وعن أمورها كلها،

ولذلك قامت بزيارة لوالدة عبير عصرا لعلمها أن عبير تكون في النادي في مثل هذا الوقت!..

استقبلتها أم عبير بالبشاشة نفسها التي استقبلتها بها ليلة زواج فيصل؛ مما أكد لها أن البشاشة طبع فيها وليس تكلفا، فابتدرتها بالسؤال عن أحوالها، وهنأتها بعودة عبير واستقرارها بين أهلها.. قادتها أم عبير إلى صالون الجلوس، واتخذت مكانها فيه بصعوبة بسبب جسمها المترهل، وأخذت تسأل عن فيصل وأموره بعد الزواج، ورفعت كفيها إلى السماء تدعو له ولعروسه بالتوفيق.

ناولتها أم فيصل فنجان القهوة، ومدت إليها طبق الحلوى المنوعة لتختار منها ما يروق لها، فقالت وهي تتناول واحدة منها وتضحك:

– الحلويات زادت وزني يا أم فيصل.. ولدي صالح – هداه الله – منعني من العمل.. كنت من قبل أشتغل وأتحرك وكان جسمي مثل العود!..

وردت أم فيصل عليها مجاملة:

= جسمك زين يا أم صالح.. لكن تحتاجين إلى قليل من الحركة.. اشتركي في ناد نسائي، أو اذهبي لشارع (الحوامل) – كما يسمونه – وامشي نصف ساعة كل يوم!

– والله ما قصرت عبير.. سجلتني في ناديها لكني أنا الكسلانة!

أم صالح لم تترك العمل كما طلب ابنها صالح، بل إنها تمارس مهنة من شأنها أن تنقص وزنها، فهي تتطلب حركة دائبة، وتنقلا من

بيت لبيت طوال النهار، لكنها تعتمد على سائقها الخاص في إيصالها لكل بيت ولو كان بيت أحد الجيران، ولا تمتنع من تناول ما يقدم لها من الفطائر والحلويات والشاي والعصيرات، لكنها لا تريد أن تقول لأم فيصل إنها تمارس مهنة الخطابة!

تناولت كأس العصير وقالت:

– ألم تستقر عبير نهائيا لديكم؟ أم تنوي الرجوع للخارج؟

= من غير شر. ما لها إلا أهلها وديرتها.

– ألم تفكر في العرس يا أم فيصل؟

= كم حاولنا معها وتعبنا يا أم صالح. ما أكثر من تقدم لها.. لكنها في كل مرة تقول: انتظروا حتى أنهي دراستي، وحين أنهت دراستها قالت: حتى أستقر.

– الحمد لله.. هاهي الآن أنهت دراستها واستقرت. ما لها عذر. إذا رجعت من النادي أخبريها أنه تقدم لها رجل يرغب فيها وفيكم!..

= تقصدين أن أجس نبضها؟

– لا.. الرجل موجود وكأنه (مفصِّل) حسب طلبها.. طبيب وعنده عيادة خاصة وأملاك.. ميسور الحال وابن حمولة و لم يتزوج بعد!

= تعرفين يا أم صالح أني مللت من الكلام معها في هذا الموضوع، ولا أستطيع أن أضغط عليها لو رفضت.. هي التي تعلم الناس وتنصحهم وتوجههم، وتدلهم على طريق سعادتهم في محاضراتها وبرامجها وكتاباتها..

– لعلها لم تشغل بالها بالتفكير في الموضوع، ولكن إذا وجدت كل شيء مرتبا أمامها، وعرفت من الذي تقدم لها فلا بد أن تراجع نفسها!.. حين أخذ يتحدث معي عن نفسه وعن أهله وعمله وحالته ما خطر في بالي غير عبير.

= مشكورة يا أم صالح.. أعرف أنك لن تختاري لها إلا من تختارين لابنتك..

– تعرفين يا أم فيصل أني لست خطابة، ولا يهمني غير مصلحة صديقاتي وصاحباتي. وأنا لا أعد عبير إلا ابنتي..

= أعرف هذا يا أم صالح. ما عندي شك.. عسى أن يهديها ربي وتنهي عزوفها عن الزواج.. أمهليني حتى أتحدث إليها وأرد لك الجواب!

***

(28)

جلست عبير بجانب أمها وهما يتناولان طعام العشاء.. أمها تريد أن تنقل لها خبر زيارة أم صالح عصر اليوم، والغرض الذي جاءت من أجله، لكنها تحاذر من أن يكون ردها حاسما وحازما، فراحت تبحث عن مدخل مناسب تمهد به لإيصال الخبر إليها، لأنها تعرف رأي ابنتها في الخطابات، ولولا ذلك لاستدعت أم صالح لتقول ما تود قوله، فهي التي تستطيع إقناع الحجر!

قالت أم فيصل لابنتها عبير:

– ألم تفكري في الزواج يا ابنتي حتى الآن؟!

بدأ السؤال مباغتا لعبير على الرغم من أن والدتها أرادت به أن يكون تمهيدا لما تود قوله بعد، فأجابت وهي تبتسم:

= فكرت يا أمي لكنكم رفضتم!

وفهمت والدتها ما ترمي إليه فأجابت على الفور:

– موضوع (الهندي) انتهينا منه يا ابنتي.. والله ما نعيبه في شي، لكننا لا نقدر على مواجهة المجتمع.. اليوم تقدم لك طبيب، ابن حلال وولد حمولة وأحواله زينة..

= كيف جاءكم؟ ومن أتى به؟

لم تتوقع أم فيصل أن تجيب ابنتها على سؤالها بهذا السؤال المباغت، ولأنها لم تتعود الكذب ولا المراوغة – خاصة مع ابنتها – فقد اضطرت أن تجيب بصراحة:

– عن طريق أم صالح. زارتني اليوم وأخبرتني!

= والله عجيبة أم صالح هذه. تأتي بنفسها لتقول لك هذا الخبر؟! أنا أراها كل يوم تقريبا في النادي فلِمَ لم تقل لي؟

– ليس نقصا من قدرك يا ابنتي، لكنه من باب زيادة التقدير لي. لولا أنها تقدرني ما جاءت بنفسها.. كان بإمكانها أن تتصل هاتفيا. ولعلها كانت محرجة منك، أو تخشى ألا تأخذي عرضها بجدية!

= لكنك تعرفين رأيي يا أمي.. لا أتزوج عن طريق خطابة!..

– وكيف نزوج أولادنا وبناتنا إذا ما استعنا بالخطابة؟ حتى إذا لم يكن عن طريق خطابة محترفة فعن طريق الأمهات أو الأخوات اللاتي يقمن بدور الخطابة تماما.. أين يمكن أن يتعرف الشاب على البنت في مجتمعنا المحافظ؟

= لا أدري!.

قالتها عبير بصوت منخفض وقد سرح بها التفكير إلى البعيد.. تذكرت بريطانيا ولقاءها بمحمد نذير دون واسطة وأحاديثهما المشتركة، وتبادل وجهات النظر، والحوار دون مؤثرات الأقارب أو وساطة الخطابات. وتذكرت أنها اتخذت قرارها من ساعتها حين خطبها لأنها عدت الموضوع من باب الحرية الشخصية

وهي تملك حريتها الشخصية، وأخذت تقارن بين المجتمعين وتفكر في قول أمها:

"أين يمكن أن يتعرف الشاب على البنت في مجتمعنا المحافظ"؟!

مرت الأيام وأم صالح تنتظر إجابة أم فيصل، وأم فيصل تنتظر عسى أن تلين عبير وتتراجع عن إصرارها، فتسألها على الأقل عن اسم المتقدم لها وعن بعض المعلومات عنه، أو تطلب من أخيها فيصل السؤال عنه كما هي العادة في مثل هذه الحالات، لكن عبير لم تفعل.

وانتظرت إيمان أن تخبرها خالتها عما دار في تلك الزيارة، أو ما ترتب عليها لكنها لم تقل شيئا. وتوقعت أن تحدثها عبير في الموضوع ذاته ولو على سبيل الاستشارة؛ لا سيما وقد تمكنت صداقتهما مؤخرا، وبدأت عبير ترتاح لها بعد أن أصبحتا تقضيان الساعات الطوال معا في الجامعة صباحا، وفي النادي مساء، لكنها لم تنبس ببنت شفة!.

ولأن الفضول قد بلغ بإيمان مداه فقد وجدت نفسها مضطرة لسؤال خالتها سؤالا مباشرا:

– خالة.. لم تخبريني عما فعلتِ مع عبير وأمها؟

= وأنتِ ما شأنك في هذا الموضوع؟ أردتك أن تريحيني من مشقة الزيارة وتكوني واسطة خير، لكنك لم تطيعيني!

– لا يا خالة.. أنتِ تعرفينني جيدا.. دائما في طوعك.. لكن كما قلت لك من قبل يصعب الكلام في هذا الموضوع مع عبير بالذات.

= وعبير ألم تقل لك شيئا؟ أم أنك تكتمين الأمر عني؟

– لا والله يا خالتي لم تقل لي أية كلمة. حتى إني ظننت أنك لم تزوريها.

= ما أعجب هؤلاء الناس؟!. ولا أعجب من البنت إلا أمها! ما رأيك لو تذكّرينها حتى أُجيب الرجل الذي مازال ينتظر الجواب؟!

– اتصلي بأم عبير هاتفيا واعلمي جوابها.

= لا أريد أن ألح عليها فتحسب أن الرجل لم يجد غير ابنتها!

هذه المرة إيمان تريد أن تتدخل في الموضوع؛ لكن ليس رأفة بخالتها، ولا حبا في عبير؛ بقدر ما هو إشباع لفضولها. ولذا قالت لخالتها:

– حاضر.. غدا آتيك بالأخبار!

***

في الاستراحة (النادي) استلقت كل من عبير وإيمان متجاورتين على سريرين خشبيين بجانب المسبح المغطى، وأخذتا تتحدثان:

– عبير.. عندي لك أمانة أريد أن أوصلها لك.

= خيرا؟ أية أمانة.

– أولا تسلم عليك خالتي.

= عليك وعليها السلام. لِمَ انقطعت عن النادي؟ ألم نتفق أنها هي صاحبة الدار؟ هي في حاجة إلى برنامج تخسيس وممارسة الرياضة. وثانيا؟

– ثانيا تذكرك بالعريس الذي حدثت أمك بشأنه!

انفجرت عبير ضاحكة حتى كادت تغص بريقها، وتناولت قنينة الماء المعدني من جوارها وابتلعت نصفها، ثم قالت:

= أصبحتِ خطابة كخالتك؟ ما رأيك لو فتحنا مكتبا للتزويج هنا؟!

– يا عبير.. أنا رسول، والرسول مؤتمن.. تقول خالتي إن والدتك لم تجبها، ومن حرصها عليك طلبت مني أن أذكرك.

= أتريدين الصراحة؟ أنا ما عندي مشكلة في الـــزواج، ولا أرفضـــه نهائيا، لكن كما قلت لأمي: لا أتزوج عن طريق خطابة.. سلمي لي على الخالة وبلغيها كلامي!

نقلت إيمان جواب عبير فور وصولها إلى البيت لخالتها، كما نقلت لها رغبتها في أن تأتي إلى النادي لتمارس الرياضـــة، وتجـــري عمليات التخسيس التي تحتاجها.

وعلى الرغم من استياء أم صالح من عدم تحقيـــق زيارتهـــا لوالدة عبير أهدافها، واستيائها أكثر مـــن رد عـــبير؛ إلا أن بعـــض علامات الارتياح بدت عليها لأكثر من سبب؛ منها أن إيمان عادت مطواعة لها كما كانت من قبل وأوصلت الرسالة كما طلبت منـــها. ومنها أن ترحيب عبير بها ومنحها عضوية النادي الشرفية لم يكـــن مجرد مجاملة؛ بل إنها تعني ما تقول. وأهم من ذلك كله أن فكرة قبول عبير للزواج ما زالت قابلة للنقاش، وإذا كان الأمر كذلك فلن تعدم وسيلة للوصول إلى هدفها!..

***

(29)

قبل سنتين تقريبا، وحينما كانت عبير في المملكة المتحـــدة؛ أنشأت لها صفحة على (الفيسبوك) باسمها الشخصي، ووضـــعت في صدرها بياناتها الشخصية؛ مثل جنسيتها، ومؤهلها ومهنتها، وعنوانها وهاتفها.. كل معلوماتها كانت واضحة لمن أراد، إذ لم يكن في ذلك ما يعيب؛ بل رأت كما يرى كل الأسوياء أن هذه هـــي الوســـيلة الصحيحة لكي تحقق الصفحة هدفها من التواصل، فلا يتوقف عنـــد صفحتها إلا صديق حرف، أو زميل مهنة، أو شريك فكر، أما من لا تروق لهم صاحبة الصفحة أو أهدافها فليبحثوا عن صفحات تلبي لهم رغباتهم، وما أكثرها في عالم الفيسبوك. ولذلك كانـــت صـــفحتها ملاذا للباحثين الجادين عن المعلومة وعن الخبرة والتجربة؛ خاصـــة في مجالها التربوي الأسري. وبطبيعة الحال – وبحكم إقامتها في الغرب – كانت صفحتها باللغة الإنجليزية.

وحين عادت واستقرت في موطنها رأت أن تمتـــد أغصـــان دوحتها إلى أبناء وطنها وبناته، فهم أولى بغراس الثقافـــة الأســـرية، وأحوج ما يكونون إلى خبراتها التربوية وتفكيرها المنهجي. ونظرا لأن صفحتها تلك بالإنجليزية، رأت أن تبقيها كما هي وتنشئ صـــفحة أخرى بالعربية اتبعت فيها المنهج الصريح ذاتـــه؛ فعرضـــت اسمهـــا

الحقيقي ومعلوماتها الشخصية بكل دقة، وعبرت عن سياسة صفحتها بكل وضوح، وحددت الفئات المستهدفة التي تعنيهم صفحتها، واعتذرت عن قبول إضافة من لم تكن صفحتها من اهتمامهم.

لكنها لم تكد تبدأ في نشر أولى مقالاتها إلا انهالت عليها التعليقات من كل حدب وصوب من قبيل: "أحسنتِ يا جميلة".. "بوح جميل يا حلوة".. "سلمت أناملك يا قمر"!

أصيبت بالدهشة الممزوجة بخيبة الأمل. كيف ترد على هؤلاء وكيف تتعامل معهم؟! وتذكرت على الفور شطر بيت الشاعر:

أريد حياته ويريد قتلي....

هي تود أن تزيل عنهم غشاوة الجهل وتزيد من جرعات الثقافة التي تقدمها لهم، وهم يأبون إلا الانتكاس والتردي في ظلمات الجهالة!..

اتجهت إلى طلبات الصداقة فوجدت عددا هائلا من طالبي الصداقة؛ تسعة أعشارهم من الرجال!. لم تستعجل بالموافقة على إضافتهم، فرجعت إلى صفحاتهم و لم تجد فيها من له اهتمامها نفسه، ولا ما يقاربه إلا النزر اليسير. لكنها رأت أن صفحتها في بدايتها ولا بد لكي تكون مقروءة من أن يكون لها عدد كبير من القراء ولو من الغوغائيين والرعاع، وعندما يكثر قراؤها ومريدوها تبدأ في تصفيتهم والإبقاء على النخبة. وكإجراء احترازي من هجمات الفضوليين والمراهقين أقفلت نافذة الحوار (الدردشة) حتى حين، لكنها فوجئت

بسيل من الرسائل الخاصة والغرامية على وجه التحديد، وغير واحد يطلب منها الزواج!

تحدثت الدكتورة عبير إلى بعض زميلاتها عضوات هيئة التدريس عما صادفت من معاناة مع مرتادي صفحتها فضحكن منها ومن سذاجتها، وأجمعن على أنها هي التي أغرت الشباب بمغازلتها، فهي من سجلت في بياناتها الأساسية حالتها الاجتماعية (عزباء) ووضعت تاريخ ميلادها الحقيقي!!

قالت لها إحدى الزميلات: اكتبي متزوجة وأم لستة أطفال، واكتبي تاريخ ميلادك منتصف القرن الماضي، ومع ذلك لن تسلمي منهم.. ألا يكفي أنك امرأة؟!

يا للمأساة إن تكن هذه هي الحقيقة، أو حتى نصف الحقيقة! قالتها عبير محدثة نفسها في أسى..

لم تغير عبير من خطتها في صفحتها، لكنها عملت على أن تكون أكثر هدوءا.. صارت تحذف الرسائل الفارغة من المضمون دون أن يثير ذلك غضبها، وتحذف طلبات الصداقة التي لا ترى في صفحات أصحابها ما يشدها، وتحذف التعليقات الشاذة، وترد على غير المهذبين بردود مخجلة، وبدأت في تنظيف صفحتها من الحثالة؛ فقد أصبح لديها عدد لا بأس به ممن تظنهم صفوة المجتمع من أدباء ومثقفين وكتاب وأساتذة جامعات.

عندما اطمأنت فتحت باب الدردشة مرة أخرى، ويا لهول ما رأت.. كانت تعاني من الرعاع ومن فجاجة أسلوبهم المكشوف

والواضح الصريح، ولكن محادثة هؤلاء لم تكن تأخذ من وقتها الكثير؛ فمن الدقائق الأولى يتبين هدفهم، وأحيانا من الجملة الأولى حين يبدأ أحدهم حديثه بكل سخف: "مساء الخير.. كيفك حبيبتي"؟..

هذا شأن السوقة معها!. لكنها صدمت بالصفوة الذين يدبجون المقولات المنتخبة، وينتقون العبارات المنمقة، ويتظاهرون بأنهم حضاريون متمدنون، ويدسون في طيات حوارهم المعتنى به كلمات الثناء وعبارات التقدير التي لا يخفى منها مقصدهم السيئ وتلميحاتهم الساقطة!

سمعت بعض زميلاتها ذات يوم يتحدثن عن اضطرارهن لمسايرة زملائهن الذكور وخضوعهن لهم بالقول؛ فمفاتيح الترشح للمشاركات في الفعاليات الداخلية والخارجية بأيديهم، والاستكتاب للندوات لا يتم إلا بتوصية منهم، وحتى النشر في الصحف والمجلات لا يتم لقيمة الموضوع الفكرية الذي تقدمه الكاتبة، ولا لجمال أسلوبه؛ بل بقدر ما تحظى به كاتبته من دلال وجمال!

كادت تقول لهن: إنكن تبالغن، لولا أن تذكرت رسالة من مسؤول تحرير عرض عليها إتاحة الفرصة لنشر سلسلة من مقالاتها في صحيفته، وطلب منها مقابلته حتى يتحدث معها بشأنها، لكنه لم يرد عليها حين أرسلتها له بواسطة البريد الإلكتروني. وتذكرت أن أحد الأكاديميين الذي رأس إحدى المناسبات أسقط اسمها من المشاركة في اللحظات الأخيرة حين كانت جادة في الحديث الهاتفي معه؛ حتى إنه

لفت انتباهها إلى أن جديتها تصل إلى حافة الحدة وتفـوّت عليهـا الكثير!

واصلت الدكتورة عبير الكتابة في صفحتها دون أن تتنـازل عن خط سيرها ومنهجها الجادين في تناول القضايا، ودون أن تجامل من تتوقع ألا ترضيهم أطروحاتها، ووجدت فيما لاقته مـن رفقـة الفيسبوك هؤلاء نماذج تستحق الكتابة عنهم، وبدأت في تناولهم فعلا دون الإشارة إليهم بالاسم، وكان في هذا ردع لأكثرهم بالابتعـاد وتوخي الحذر. وفي المقابل وجدت من أصدقاء الفيسبوك المـراهقين المرهقين – ذكورا وإناثا – نماذج تستحق الكتابة عنهم مـن بـاب الشفقة عليهم وتوجيههم؛ لأنها أدركت أنهم ضحية لسوء اسـتخدام التقنية وانعدام المثال.

تذكرت كيف كانت صفحتها في بريطانيا ملجأ للمتعـبين والمتعبات من الشباب والفتيات لبث همومهم وشكواهم وتلقي الحل المناسب من خبيرة تربوية محبة لمهنتها، ومهتمة بمرتـادي صـفحتها. وقررت أن تكرس صفحتها الجديدة لخدمة هذه الفئة من أبناء بلدها وبناته، فهم وهن أولى بالرعاية من أولئك.. صحيح أن ذلك سيكون على حساب راحتها، لكنها ستضحي من أجلهم ومن أجل وطنـها مهما كلفها ذلك من قلق وما سببه من متاعب.

بدأت في الاستماع إلى الأصوات الشابة بكل رحابة صدر، ومساعدتهم في العثور على علاج لمشكلاتهم، وقد بدأت آثار عملها هذا الذي نذرته لوجه الله يؤتي أكله، فكم مشكلة حلتـها، وكـم

معوج أقامت اعوجاجه، وكم منحرفة أعادها إلى الصراط المستقيم، وهاهي توشك أن تقطف ثمرة تعبها، فقد قاربت على الانتهاء من تأليف كتاب عن مشكلات تعامل المراهقين مع وسائل الاتصال الحديثة!.

***

(30)

الطبيب النفسي يوسف أحد أصدقاء عبير على الفيسبوك؛ معجب بطروحتها وجاد في مناقشتها. ومع أنه – بحكم عمله في عيادته – كان قليل الظهور على صفحته في الفيسبوك؛ إلا أن رسائله الخاصة إليها لا تنقطع. وحين أعادت فتح نافذة المحادثة بعد انحسار موجة المد الغوغائي كان هو أول من بادر بالتحية والسؤال عن الأحوال والأسرة والعمل.. تكررت الحوارات الفكرية بينهما دون الخوض في أية أحاديث تتعلق بالأمور الشخصية مطلقا. كان في غاية التهذيب في كل المساءات التي جمعت بينهما على شاطئ الفيسبوك.

انقطعت عبير لعدة أيام لظرف صحي، وحين فتحت صفحتها وجدت الرسالة التالية:

د. عبير..

مساء الخير..

لم أرك لعدة أيام. أرجو أن يكون المانع خيرا.

باختصار شديد.. استغربت من أنك لم تعرفيني حتى الآن إلا إذا كنت تتجاهلينني؟! أنا الدكتور يوسف الذي جئتكم عن طريق الخطابة أم صالح قبل عدة أشهر.. قبلها لم أكن أعرف عنك أكثر مما روته لي الخطابة من أنك خريجة بريطانيا وتقيمين هناك، وقد تأخر

بك الزواج لانشغالك بالدراسة والعمل. فأخذتُ أبحث عنك عن طريق الإنترنت، ووقفت على أبحاثك، واطلعت على اهتماماتك، وقرأت الكثير من مقالاتك في صفحتك بالإنجليزية، وخمنت أننا سنكون الزوجين المناسبين للتشابه الكبير في حياة كلينا – خاصة بعد أن عرفت من الخطابة أنك أنهيتِ علاقتك ببريطانيا، وعدتِ لتستقري هنا.. فأنا أيضا تأخر بي الزواج لانشغالي سنوات عديدة بدراسة الطب في الولايات المتحدة الأمريكية، ثم افتتاح عيادتي النفسية الخاصة هنا في الرياض، والعمل على تطويرها، ونشر مفهوم الطب النفسي لدى الناس وتوعيتهم بأهميته والحاجة إليه.

أنا مقبل فلا تدبري عني، وجاد فأعيري طلبي اهتمامك..

المخلص: د. يوسف

بعد هذه الرسالة كانت عبير محتاجة إلى مناخ هادئ؛ ليس للتفكير في العرض فحسب، بل لاستعادة أنفاسها من اللهاث المستمر الذي أصابها وهي تقرأ الرسالة، والمفاجأة التي أذهلتها وكأنها تركض في سباق للجري!..

إذن هذا هو الدكتور الذي خطبها عن طريق الخطابة أم صالح! ولأول مرة يخطر في بالها أنْ ليس كل من يأتي عن طريق الخطابات سيئا، وبالتالي فأمها على حق حين ترى رفضها الزواج عن طريق خطابة أمرا غير مقنع!.. كان أول إجراء اتخذته أن أغلقت الفيسبوك لعدة أيام حتى لا تؤثر فيها رسائله المتتالية أو محادثاته، فترد عليه قبل أن تكون أعطت الموضوع ما يستحقه من تفكير.

تعرف عبير ما تريد الآن.. تريد الاختلاء بنفسها لتفكر بتأن دون أية مؤثرات خارجية.. ليتها تستطيع أن تأخذ إجازة من عملها، وتهرب إلى أحد الشواطئ الحالمة فستستلقي هناك لعل موجة تهمس في أذنها بالقرار الذي عليها أن تتخذه، أو طائر نورس يحمل لها رسالة تنبيه، أو لعلها تقرأ الحل مكتوبا على صفحة رمال الشاطئ بعد أن تنحسر عنه المياه!.. لكنها بالتأكيد لا تستطيع، فهي أستاذة مهتمة بعملها وطالباتها، والإجازة ستضر بكليهما!!..

هاهي في غرفتها لكنها، لا تستطيع المكوث فيها طويلا.. ستفتقدها أمها وتسأل عنها. أتقول إنها متعبة؟ إذن ستزعج أمها، وربما تحثها على زيارة الطبيب أو استدعائه في البيت.. هاهي مشوشة الفكر، فلا تستطيع أن تجلس مع والدتها وأشقائها لأن كلا منهم سيلاحظ شرودها.. وغدا ما ذا ستفعل في الجامعة؟ كيف ستتجنب ملاحظات زميلاتها؛ وعلى وجه الخصوص إيمان التي لا تترك ساعة من فراغ إلا قضته في صحبتها، ولا يمكن أن يمر وجومها دون ملاحظة منها..

أخيرا قررت أن تواجه المشكلة لا أن تتهرب منها، وأن تستقبل الموجة بدلا من أن تدير إليها ظهرها.. قررت أن ترد على يوسف، وتتعرف على جوانب لم تلق لها بالا من قبل.. أن تبدأ معه حوارا جادا عن مشروع المستقبل!

انتظرت يوما أو بعض يوم حتى وجدته متاحا للدردشة، فبدأت بالسلام والاعتذار عن تأخرها في الرد بسبب مشاغلها

العملية، واعتذرت كذلك من أنها لا تعرف أنه سبق أن تقدم لها؛ لأنها لم تسأل أمها عن اسم المتقدم لرفضها أي زوج تأتي به خاطبة، وطلبت منه أن يجيبها بكل صراحة: "لماذا يلجأ رجل متعلم ومثقف مثله إلى هذا الأسلوب في التقدم لطلب يد فتاة"؟

رد الدكتور يوسف التحية بأحسن منها، و لم يخفِ دهشته من أن بياناته التي اجتهد في تبليغها للخطابة لم تصلها. أما أنه لجأ إلى هذا الأسلوب التقليدي فلأنه الأسلوب الوحيد المتاح في هذا المجتمع، إضافة إلى معرفة والدته بأم صالح منذ كانتا جارتين في (القرينين)؛ أحد الأحياء القديمة بالرياض قبل أن تفرقهما سنوات الطفرة،. وأضاف: "إننا أبناء هذا المجتمع وليس لنا إلا الخضوع لقوانينه وأحكامه وعاداته"!

إنه منطق والدتها نفسه بل ولسان حالها!

أنهت عبير المحادثة بحجة أنها تلقت اتصالا هاتفيا وستعود لتكملة الحديث لاحقا..

***

هل الطبيب المثقف الدكتور يوسف راض عن المجتمع وتقاليده وعاداته؟ أم يائس من عدم قدرته على فعل شيء؟ وإن لم يحاول مثل الدكتور يوسف فمن يحاول إذن؟!

تساؤلات طرحتها عبير على نفسها بحثا عن مخرج لوجاهة رأي يوسف حين أقدم على الخطبة التقليدية وهو الطبيب المثقف، ومحاوَلة لإقناع نفسها بأنه لا معنى لمقاومة التيار، ولا طاقة لها

بمناطحة الجبال، فلتقبل ما يقبله الآخرون، ولترضَ بما يرضي الملايين من مختلف فئات الشعب!.

غير أن شيئا آخر أضفى عليها قدرا يسيرا من بهجة الانتصار حين راحت تقنع نفسها بأن خطبتها من يوسف – إن تمت – فإنما لن تكون خطبة تقليدية بالمعنى الحرفي؛ فهي تعرفت عليه من خلال وسيلة الاتصال الاجتماعية (الفيسبوك) دون أن يكون للخاطبة أي دور، ولتأكيد رؤيتها هذه لم تمانع حين دعاها للتعارف في عيادته النفسية ليبتعدا ولو قليلا عن روتين التعارف الذي يحدده المجتمع!

***

في العالم الواقعي يبدأ التعرف على الآخر بدءا بملامحه وصفاته وتعامله وأسلوبه، ثم يأتي التعرف على أفكاره ورؤاه وتطلعاته، أما في العالم الافتراضي فتتم الأمور بصفة عكسية؛ فيبدأ أحد الطرفين بالتعرف على أفكار الطرف الآخر، وآرائه وفلسفته في الحياة واهتماماته وما إلى ذلك، ثم إذا كان اللقاء على أرض الواقع؛ كانت المهمة هي مطابقة الأصل على الصورة..

هذا ما حدث في اللقاء الذي جمع بين عبير ويوسف في عيادته، فقد كان كل منهما يعرف الآخر معرفة شبه كاملة، ولا ينقصهما إلا التأكد من أن الصورة التي عرفاها من خلال الفيسبوك هي طبق الأصل!

***

(31)

استطاعت عبير أن تستقر على رأي بشأن خطيبها الدكتور يوسف، ورأت أنه الأكثر ملاءمة لها. وحان الوقت الآن لكي تخبر والدها بموقفها الأخير، لكنها احتارت من أين تبدأ وأي السبل تسلك؟

لقد تعلمت بعد هذه المدة الوجيزة التي عاشتها بين مجتمعها وأهلها ومع أمها ما الذي يصح قوله، وما الذي لا يصح؟ وما الذي يقال مباشرة وما الذي لا يقال إلا بتورية وكناية! وتعلمت أن تمهد للأخبار المفاجئة حتى وإن كانت سارة. والأهم من ذلك كله أنها تعلمت أن ليس كل ما تراه مفرحا في نظرها يكون كذلك عندما يتلقاه الآخرون! درست جيدا ما قامت به، وحضَّرت ما ستقوله لأمها. ولما لم تجد فيما قامت به أمرا مريبا رأت أن تخبر أمها بكل التفاصيل لتثبت لها أن عصر الخاطبات ولّى، وأنه خلافا لما تظن أمهاتنا أصبح بإمكانهن أن يزوجن بناتهن وأبناءهن بطرق حديثة معاصرة!

***

في ضحى يوم الخميس من كل أسبوع – حيث لا يزال الكل مستغرقا في النوم – يطيب لعبير الجلوس إلى والدها وتبادل

الحوار معها؛ سواء أفي شؤونها الخاصة أم في شؤون المجتمع بصفة عامة.

أحضرت الخادمة (صينية) حمَّلتها بـ (دلة) القهوة وفناجينها، وطبق التمر. وتناولت عبير الدلَّة وسكبت لأمها فنجانا وقدمته لها، ثم اختارت واحدة من أجود ما في طبق التمر وناولتها إياها.

أخذت تتجاذب أطراف الحديث مع أمها وتخبرها عن المصادفة العجيبة التي تعرفت من خلالها على يوسف عن طريق الفيسبوك! كانت فرحة الأم لا تقل عن بهجة عبير وهي تتحدث؛ فما يهم الأم هو أن تتزوج ابنتها وترى ذريتها قبل موتها، أما دراستها ووظيفتها وإنجازاتها التربوية والاجتماعية فكلها أمور ثانوية أو مكملة للفتاة، وليست أمورا رئيسة من وجهة نظرها!..

قالت أم عبير وهي تعلق على الصدفة العجيبة التي جمعت بين يوسف وعبير:

– الحمد لله الذي هيأ لنا الأمور من دون تدخل أم صالح! أرجو أن يكتب لك الله الخير يا ابنتي. أما قال لك متى سيأتي أهله لخطبتك؟

= أمن الضروري أن يأتي أهله؟

– بالتأكيد. أولا: يهاتفوننا، ونحدد لهم موعدا لتراكِ أمه وقريباته.. ومن ثم يأتي ليقابل أخاك فيصلا، ويتحدث معه، وإذا أعجب أخاك بدأ في السؤال والتحري عنه.. وفي حالة موافقتنا المبدئية نعلمهم

بذلك، فيطلب – هو – تحديد موعد لرؤيتك الرؤية الشرعية بحضور أخيك فيصل!!

= أية رؤية يا أمي؟ ألم أقل لك؟!.. رأيته ورآني وانتهينا!..

– كيف؟ وأين؟

= في عيادته. دعاني لعيادته كأية مريضة، ورأيته ورآني، ولم نترك شيئا من شؤوننا المستقبلية إلا تكلمنا فيه.

هنا اكفهر وجه أم عبير، وكادت تتكرر كارثة انهيارها في المرة السابقة حين أخبرتها بخطيبها الهندي، لكنها بدت أكثر تماسكا هذه المرة!..

– أما تخشين يا ابنتي كلام الناس؟ لو رآك أحد معارفك أو إحدى صديقاتك ماذا تقولين لهم؟!

= تعرفينني يا أمي.. أنا امرأة عاقلة، وأعرف الصواب والخطأ، وصورتي ليست محجوبة عن أحد.. كنت أستاذة في جامعة مختلطة في بريطانيا، وأقدم برنامجا في التلفاز، والكل يراني ويعرفني..

– لا أتحدث عن رؤيته إياك. أتحدث عن زيارتك عيادة طبيب نفسي! ماذا يقول الناس لو رأوكِ في العيادة النفسية؟!

= عفوا يا أمي.. ما فهمت قصدك؟ أتقصدين أن المشكلة في زيارتي إياه في العيادة النفسية وليست في مقابلته؟ لو كان اللقاء في عيادة باطنية هل سيكون الأمر مقبولا؟!

– أنتِ يا ابنتي غريبة عن مجتمعنا وعاداته. الطبيب النفسي مرتبط عندنا بعلاج المصابين بمس أو سحر، أو – بصراحة –الذين فيهم

شيء من الجنون أعاذنا الله وإياك منه! لو رآكِ أحد من معارفك سيظن أنك مصابة بشيء من هذا!

= يا أمي.. المرض النفسي كأي مرض آخر، له أطباء متخصصون يشخصون المريض ويكتبون له العلاج الذي يحتاجه. كل إنسان يحتاج للطبيب النفسي إذا شعر بضيق في الصدر أو اكتئاب.. ليس بالضرورة أن يكون مصابا بالجنون. أنا زرت أكثر من مرة عيادات نفسية في بريطانيا، وكنت أشعر بالارتياح بعد كل زيارة.

– الذي يعاني من ضيقة صدر يذهب إلى (مطوع) يقرأ عليه! لا يحتاج طبيبا.. هذا حالنا منذ أن عرفنا أنفسنا.. المهم إياك أن يدري فيصل كيف تعرفتِ عليه. ألا تعرفين أن أخاك لا يقبل أن تتصل البنت بالرجال حتى في النت؟! واحذري أن تقولي له إنكما تقابلتما في عيادته فيقتلك! ولا تخبري أحدا قبل أن نحدد موعد (العرس).. إبليس ما مات!!

وضحكت من عبارتها الأخيرة، وقالت:

= ولو أني غير مقتنعة بهذه الأفكار والطقوس؛ لكني سأنفذ ما تأمرينني به..

– أرجو لك الخير، ولا تنسي صلاة الاستخارة يا ابنتي..

مرت الأيام بطيئة على كل من يوسف وعبير حتى انتهاء مشروع الخطبة وفق (بروتوكول) المجتمع وقوانينه، خاصة أن فيصل احتاج إلى عدة أسابيع للاستعلام عن خطيب شقيقته.. وبطبيعة الحال لم تلق هذه الإجراءات أي اعتراض لا من الخطيب، ولا من

والدته.. الخطيب لتأقلمه مع المجتمع وتقاليده، وأمـــا أمـــه فليقينـــها بسلامة هذه الإجراءات. لقد قالت لابنها:

– أرأيت يا يوسف؟ مع أنها عاشت في الخارج مدة طويلـــة لكنـــها ملتزمة بعادات مجتمعنا، وهذا دليل على حسن تربية أهلها إياها!

***

(32)

سرعان ما انتشر خبر عقد قران الطبيب النفسي يوسف للأستاذة الجامعية عبير في الوسط الجامعي حيث تعمل، وفي محيط الأسرتين. وسر الجميع للخبر السعيد وباركوا لهما وتمنوا لهما زواجا سعيدا؛ ما عدا أم صالح فقد ازداد حنقها حين سمعت بالخبر من إيمان في اليوم التالي لإتمام مراسم عقد القران! والذي أثار غيظها وحيرتها هو أنها متأكدة من أن الأسرتين لا تعرف أي منهما الأخرى، ولم تزود أيا منهما بوسيلة اتصال؛ بل ولا حتى بالاسم الكامل للخطيب أو الخطيبة، فكيف أمكن للأسرتين الالتقاء دون اللجوء إليها. وأيًّا كانت وسيلة التعارف فإن هذا التصرف لا يعدو أن يكون محاولة من والدة العريس لإخراجها من الساحة حتى تحرمها من عمولتها المستحقة، وهذا هو الشيء الذي لا تسمح أم صالح بحدوثه مطلقا.. وشعارها دائما: (إن الله لا يستحيي من الحق)!

رأت أم صالح أن خير وسيلة للمطالبة بحقها من أم يوسف هو أن تقوم بزيارة لها في منزلها؛ تبارك لها ولابنها وتذكرها بعلاقتهما السابقة وصداقتهما الطويلة، وربما فهمت الغرض الحقيقي من زيارتها فدفعت لها حقها دون مماطلة، وإلا فلا مانع أن تطالب بحقها ولو عن طريق الشرع!

طرقت أم صالح الباب، وفتحت الخادمة، وطلبت من ربتها أن تعلمها أن أم صالح بالباب، وقدمت أم يوسف ترحب بالقادمة في بشاشة مصطنعة، وتدعوها للدخول. جلست أم صالح وهي تلهث من عتبات الباب الخارجي، ثم عتبات الباب الداخلي للفيلا، وأخذت مكانها في الصالون وهي تعتذر إن كان الوقت غير مناسب، وأنها لن تطيل في زيارتها؛ فهي ما جاءت إلا لتبارك، وأقسمت أنه لولا معزتها ومعزة ابنها يوسف لما تجشمت عناء الحضور لتقديم التهنئة؛ على الرغم من ثقل حركتها في الأيام الأخيرة..

بدأت أم صالح الحديث بقولها:

– وفقهما الله. يشهد الله كم فرحت يوم أن أخبرتني إيمان؛ زوجة ابني وزميلة عبير في الجامعة. أدري إن (المِلْكة) مناسبة خاصة لا يدعى لها إلا الأقارب، لكن من حقي أن تخبريني حتى أفرح لهما وأدعو لهما بالتوفيق.

= تعرفين يا أم صالح أننا لا ننكر فضلك، ولا ننسى جيرتك، لكن مشاغل الدنيا تنسينا أهم الأشياء، وأقرب الناس. والأمور تمت بأسرع مما كنا نتوقع.

– بعد أن عرَّفتكم على أم عبير لم تردي علي فظننت أن البنت لم تعجبكم، أو أن يوسف صرف نظره عن الزواج!

= لا والله.. كانت عبير مشغولة وتأخر أهلها في إجابتنا.

– كيف تمت الاتصالات بينكم وبين أسرة عبير وليس بينكم علاقة سابقة، و لم أعط إحداكما رقم هاتف الأخرى؟

= لا أدري كيف وجدوا رقم هاتفنا، كنت أظنك من أعطاهم إياه. لكن لا شيء يصعب على جيل اليوم! أرجو الله أن يتمم لهما بالخير.

– آمين إن شاء الله.

أنهت أم صالح قهوتها وحديثها، وسئمت من طول المكث بلا جدوى، فقد كانت تظن أن بضع دقائق تكفي لإنهاء مهمتها الحقيقية التي جاءت من أجلها، لكن يبدو أن الحياء غلبها هذه المرة فلم تصرح بالمطالبة بحقها، ولا تدري لِمَ تتجاهل أم يوسف هذا الحق؟ وهل تبدأ بالتصريح بعد أن انتهى دور التلميح؟ هل تضطر لشرح ظروفها المادية لاستدرار عطفها كي تمنحها حقها؟ أليس حقها شرعا وعرفا فلِمَ الحياء في طلبه إذا كان الطرف الآخر يماطل في الوفاء؟

انتهزت الفرصة حين قالت لها أم يوسف:

= هاتِ (بيالتك) أصب لك شايا؟

فأجابت:

– أكرمك الله. تأخرت على بيتي.. عندك الآن لتعطيني حقي؟ أم آتي في وقت لاحق؟!

هنا أدركت أم يوسف أنها أمام خطابة محترفة، وليست كما تتظاهر دائما، وتدعي أنها تقوم بدور الوساطة حبا للخير، وتقديرا لمعارفها وجيرانها.. ولذلك ردت عليها:

= حقك موجود يا أم صالح. دقيقة وأرجع لك.

واتجهت إلى داخل البيت، وعادت فسلمت لأم صالح مظروفا مغلقا، وأتبعتها بعبارات الشكر، وردت أم صالح بالدعوات والتبريكـــات، وأضافت وهي تقوم من مكانها في طريقها إلى الخارج:

= وافية يا أم يوسف.. ولولا الظروف التي أعيشها هذه الأيـــام مـــا أخذت منكم ريالا واحدا لأن يوسف مثل ولدي لكن تقاعد المرحوم – مثلما تعرفين – لا يكفي راتب السائق والخادمة!..

كان هذا كافيا تماما لإنهاء ما كان يشغل تفكيرهـــا، ومـــا دامت ضمنت حقها فلا يهمها كيف تعارفت الأسرتان دون علمها، ولا كيف انتهت الخطبة أو المِلكة أو حتى الزواج!

***

(33)

أقيم الزفاف مع بداية عطلة الصيف. وكان زفافا تقليديا عانى منه العروسان، لكنهما أسلما أمرهما لما يريده المجتمع منهما، فلم يكن لتعليمهما ولا ثقافتهما ولا دراستهما في الخارج أي أثر في إلغاء أي مظهر من المظاهر التي لا يقرها العقل ولا المنطق؛ بما في ذلك شهر العسل الذي قضياه خارج المملكة تقليدا لمعظم العرسان السعوديين لا أكثر!

عاد كل من يوسف وعبير من شهر العسل وانخرطا في الحياة اليومية المعتادة.. كل صباح يتناولان قهوتهما معا فيأخذ يوسف زوجته إلى عملها في الجامعة، ثم يعود إلى المنزل لتناول إفطاره، ومن ثم يتجه إلى عيادته الخاصة. ويعود عند الظهيرة ليتناول ما يسد به رمقه، ويرتاح قليلا إلى قرب العصر فيخرج لإعادة زوجته إلى المنزل، ويواصل مشواره إلى عيادته حتى التاسعة مساء ليلتم شملهما مرة أخرى. والساعات القليلة المتبقية قبل الخلود للنوم كانت لا تتسع لأكثر من تناول طعام العشاء ومشاهدة التلفاز، وتناول بعض الأحداث اليومية الخاص منها والعام.

كان حديثهما الليلي المعتاد لا يخلو من أسئلة يوسف التي تتركز على ما ذا فعلتْ عبير في غيابه؟ وكيف قضت يومها؟ أسئلة

تشبه كثيرا أسئلته حين يتصل بها من وقت لآخر خلال ساعات دوامه أو دوامها. كانت في البداية تعتقد أن هذه الأسئلة تنبع من محبة خالصة وقلق لابتعادها عنه أكثر ساعات النهار وطرفا من الليل، وربما لشعوره بالذنب لتركها دون أنيس كل هذا الوقت؛ لكنها لاحظت أن أسئلته تجاوزت ذلك إلى مناقشتها فيما نشرته على صفحتها في الفيسبوك ومداخلات القراء، وملاحظاته تمادي بعضهم في الثناء عليها أكثر من ثنائهم على الموضوع ذاته، إضافة إلى تعليقاتها على موضوعات زملائها وإشادتها بهم أكثر من إشادتها بموضوعاتهم التي لا يجد فيهم ولا في موضوعاتهم ما يستحق الإشادة.

كانت تجيب إجابات مقتضبة فلا تريد أن تدخل معه في حوار، فقد تبين لها مع عِشرة الأيام الفائتة أنه ليس من النوع الذي يتقبل الحوار، وأن أفقه أضيق مما كانت تتصور!

قالت له ذات مرة:

– ألا تلاحظ أنني لم أعلق على ما تنشره في صفحتك، ولا على تعليقات قارئاتك، ولا ردودك عليهن؟

فأجابها:

= لم يبقَ إلا أن تحققي معي!. أنا زوجك.. ومن حقي أن تكوني لي.. أن يكون تفكيرك واهتمامك فيّ وحدي!

***

وفي يوم جديد قالت له:

– يوسف.. منذ أن تزوجنا لم أذهب إلى النادي مع أبي رئيسته.. الكل يسأل عني ولا بد أن يرجع نشاطي فيه مثل ما كان. أنت تغيب ما يقارب الخمس ساعات في عيادتك المسائية، وهي بالنسبة لي فرصة أقضي بعض الوقت هناك، وأرجع للبيت قبل عودتك.

= ومن يوصلك للنادي ويرجعك؟

– يمكن أن تمر علي إحدى زميلاتي، أو يوصلني سائق أهلي إن لم يكن لهم به حاجة.

= أنا لم أرد أن أثقل على أهلك بإيصالك للجامعة وإعادتك منها. فإن كان عند سائق أهلك متسع من الوقت فلِمَ لا يريحني من إيصالك في الصباح؟ ولِمَ تحرميني من القيلولة لإعادتك في المساء؟

– السائق في الصباح يوصل أختي إلى مدرستها، ثم ينشغل بإحضار ما تحتاجه أمي من طلبات، وبعد الظهر يرتاح السائق من (المشاوير).

وأطلق ضحكة صفراء وهو يقول:

= ما أطيبك وأطيب أهلك!.. راحة (الهندي) أهم من راحة زوجك؟! لا مانع لدي. اذهبي للنادي إن لم تجدي ما تشغلين به وقت فراغك، لكن من دون أن تطلبي مني أن أذهب بك أو أعود بك، ومن دون أن تتأخري عن موعد رجوعي من العيادة!..

كلمة (الهندي) آذتها أكثر من أية كلمة أخرى.. اخترقت أذنها بوصفها سبة لهذا السائق الذي قَدِم بحثا عن لقمة عيش تسد رمقه ورمق أسرته التي تغرب من أجلها، وليسد حاجة أسرتها الماسة إلى خدماته.. آذتها لأنها شعرت بنبرة التعالي والاحتقار لهذا الكائن

البشري الذي جعله قدره يحمل الجنسية الهندية، ويأتي للعمل سائقا خاصا لدى أسرة أبي فيصل! وتذكرت كلمات أخيها فيصل وعلو صوته وهو يرفض خطيبها الهندي. وأدركت أن لا فرق بين السائق والأستاذ الجامعي في نظرة المجتمع السعودي ما داما يحملان الجنسية الهندية، كما أنه لا فرق بين يوسف وفيصل ما داما يتحدثان عن تميز الإنسان السعودي!!

وبرغم الجفاف في هذا الأسلوب الذي يشبه بعض القرارات الإدارية التي يصدرها المدير العام لموظفيه؛ فإن السماح لها بالذهاب إلى النادي وممارسة السباحة – هوايتها المفضلة — والالتقاء بزميلاتها خارج ساعات العمل كان كافيا ليرسم قدرا يسيرا من الارتياح على محياها..

***

تتالت الأيام، وكان واضحا أثر تردد عبير على النادي في تحسن نفسيتها ومزاجها. قالت في نفسها:

– أنا التي فكرت في النادي، واجتهدت في إنشائه لعلمي المسبق بأنه سيكون مصدر سعادة لي، لكني كنت أتمنى أن يكون الزواج هو سعادتي الحقيقية.. كنت أتوقع أن أنسى النادي بعد الزواج، وأسلم قيادته لغيري ممن لم ينلن حظهن بعد من زواج سعيد!

كانت لا تولي أحاديث زميلاتها قبل زواجها اهتماما أو عناية خاصة، فمعظم أحاديثهن من وجهة نظرها مكررة، ولا تخرج عن قسوة الزوج أو شكه أو بخله، وكانت تعتقد أن المسألة لا تعدو

أنهن لا يعرفن كيف يتعاملن مع أزواجهن، و لم يواجهن المواقف بما تحتاجه من حكمة وكياسة. أما الآن فإنها بدأت تصغي باهتمام بالغ لأحاديثهن، وتعلق أحيانا ولكن دون الدخول في تفاصيل المشكلات حتى لا تتورط في كشف المستور من علاقتها بزوجها التي لا تقل عن علاقاتهن بأزواجهن سوءا.

اكتشفت في الأيام القليلة التي صارت تتردد فيها على النادي أن السعادة الزوجية نسبية، وأنه لا يوجد بيت مثالي، وهذا ما أعطاها حافزا أكثر للتسامح مع فضول زوجها ومع فظاظة أسلوبه، فقد تعلمت من زميلاتها في النادي بأن هذا هو طبع كل الرجال!

بعد ستة أشهر من زواجهما طلب يوسف صراحة من عبير أن تتدبر أمرها في الذهاب إلى الجامعة والعودة منها، فقد أرهقه الاستيقاظ المبكر والحرمان من القيلولة، وقال لها:

– إذا كان سائق أهلك لا يستطيع الذهاب بك للجامعة وإعادتك منها فاستعيني بأحد سائقي زميلاتك، أو استقدمي سائقا على حسابك!..

كانت الخسارة المعنوية أكبر من أية خسارة مادية، فاصطحابها للجامعة وإعادتها كان مصدر فخر لها بين زميلاتها اللاتي تتباهى كل واحدة منهن – بخلافها – بسيارتها الخاصة وبسائقها الخاص!

اضطرت عبير بعد أيام من هذا الحوار أن ترضخ لرغبة زوجها وتشتري سيارة بالتقسيط، وتستأجر سائقا مؤقتا ريثما يصل

السائق الذي طلبت استقدامه تحت كفالة زوجها وستدفع مرتبه من حسابها..

قالت لها إحدى زميلاتها وهي تراها تنزل من سيارتها التي يقودها السائق الأجنبي:

– هذا هو (الصح) يا عبير! أنا لم أرتح إلا بعد أن أصبح لي سيارتي وسائقي.. لم يعد يمنّ علي زوجي بإيصاله إياي، ولا يسألني: لِمَ تأخرتِ؟.. ومتى ما أردت الذهاب لحفلة أو سوق أو مقهى فلا أستأذن منه!

لم تستوعب عبير الصحة فيما رأته زميلتها صحيحا!

هل (الصح) أن يتخلى الزوج عن مسؤولياته وقوامته؟! أم في أن تتولى المرأة شؤونها بعيدا عن تدخل الرجل؟! وهل السيارة الخاصة والسائق الخاص هي كل ما تحتاجه المرأة من زوجها، حتى إذا استطاعت توفيرهما بنفسها أمكن الاستغناء عنه؟!

ما أكثر الأمور التي لم تستوعبها عبير في هذا المجتمع مع أنه يراها هي (الصح)!

***

(34)

دخل شهر مارس مؤذنا بانقضاء فصل الشتاء القارس، وحاملا معه نسماته الربيعية ليبدأ سكان مدينة الرياض بالخروج إلى الصحراء التي تحولت إلى متنزهات طبيعية بعد موسم مطير؛ ينصبون مخيماتهم بالقرب من أودية ما زالت آثار المياه فيها باقية، ويتعقبون الخزامى والنفل والشيح وغيرها من الأزهار البرية المتنوعة، فيملؤون خياشيمهم من أنفاسها، ورئاتهم من عبقها.

ومع هذا الربيع الزمني أصبحت الرياض تنعم في شهر مارس من كل عام بربيع آخر.. إنه ربيع المفكرين والأدباء والمثقفين، فقد تعودوا في السنوات الأخيرة على إقامة معرض الكتاب الدولي بين ظهرانيهم، فأصبحت الرياض في هذا الشهر مقصدا لسكان المملكة ودول الخليج العربي الحريصين على هذه المناسبة..

استقبلت عبير هذا المعرض بكل شغف، ووضعت برنامجا يوميا للتجول في أروقته واقتناء ما يستهويها من المؤلفات الجديدة، ووضعت خطة لحضور ما يثير اهتمامها من محاضرات وندوات فكرية وأدبية. واستعدت للمعرض بكتابها الذي صدر مؤخرا عن مشكلات تعامل المراهقين مع وسائل الاتصال الحديثة؛ الذي ألفته من واقع معايشتها لأبناء وطنها وبناته، وتجاربها معهم ومعهن، وحجزت

موعدا في منصة التوقيع بالمعرض لتوقع لمشتري كتابها. كما تأكدت مشاركتها بمحاضرة في إحدى أمسيات المعرض تعرض فيها لتجربتها في الدراسة والعمل في المملكة البريطانية.

منذ اليوم الأول للمعرض لاحظت عبير شيئا مختلفا عما تختزنه في ذاكرتها أيام كانت طالبة جامعية، ففي تلك الفترة كان المعرض يقام في صالة صغيرة مزدحمة، وكانت أيام المعرض كلها مخصصة للرجال ما عدا يوما أو يومين تخصص للنساء، فتجتمع المثقفات والطالبات والمعلمات في يوم واحد وفي صعيد واحد في مكان مزدحم تختنق فيه الأنفاس، و تكاد إحداهن لا تجد مكانا تستعرض كتابا، أو حتى لتحاسب البائع عما اشترته..

لقد سرت كثيرا بالمكان الجديد المهيأ، وسعدت بأن كل الأيام مخصصة لكل الناس، فلا أيام للرجال ولا أيام للنساء والعائلات، وسرها تنظيم الأجنحة وساعات التوقيع والفعاليات الثقافية والتغطية الإعلامية، والإقبال الشديد على الكتب من مختلف الأعمار من الجنسين. وأعجبت كثيرا بحضور المرأة في مجال الكتابة والتأليف؛ وإن تفاوتت مستويات الكاتبات والكتابات!

في الثامنة من مساء هذا اليوم كان موعد توقيع كتابها.. كانت تمر كل يوم من أمام منصات التوقيع فلا ترى إلا رجالا يوقعون، وكانت تتعجب أين النساء اللواتي تسمع في كل ساعة إعلانا عن بدء توقيع إحداهن لكتابها.. حين نودي على اسمها للتوقيع اتجهت نحو المنصات التي تعرفها، فأرشدها بعض من كان يقف هناك

– حين علموا مرادها – عن المكان المخصص لتوقيع النساء، فذهبت حيث أرشدوها إلى صالة أخرى غير الصالات التي تمر بها كل يوم.. صالة قصية ليس فيها إلا بعض الأجنحة الهامشية، و لم تجد سببا معقولا لهذا الإقصاء!

حين جلست على المكتب المخصص للتوقيع وجدت عليه ورقة مطوية.. فتحت الورقة وقرأتها فإذا هي فتوى لأحد المشايخ المغمورين عن حكم توقيع المؤلف على الكتاب لمن يشتريه، وكتابة عبارة إهداء له، وملخص فتواه أن هذه ظاهرة غريبة ووافدة على المجتمع، وأن هذا الفعل تقليد للإفرنج وتشبه بهم، وأن هذا العمل قد يورث المؤلف عجبا بنفسه وبمؤلَّفه، والقارئَ تعلقا بالمؤلِّف وتقديسا له!. كما أن ذلك يفتح باب الفتنة لا سيما عند اختلاف الجنس بين المؤلف والقارئ!!

انتهت ساعة التوقيع، و لم تفتتن بمن وقعت لهم و لم يفتتنوا بها، و لم يورثها عجبا في نفسها، و لم يورثهم تعلقا وتقديسا بها، لكنها سرت أيما سرور بالإقبال الشديد على كتابها من الجنسين ولا سيما من الفتيات، وأدهشها أن أصبح لها جمهورها من القارئات من جامعتها ومن غيرها على الرغم من حداثة تجربتها في التأليف. لقد أدركت أن الجيل الجديد لا يحتاج إلى أكثر من يفهم احتياجاتهم ويخاطبهم باللهجة التي يفهمونها.

ورسخ في ذهنها أن وسائل الاتصال الحديثة ليست شرا كلها؛ بل فيها الكثير من الخير لمن أراد الاستفادة من وجوهه الخيرة،

فلولا صفحتها على الفيسبوك لم يكن يعرفها كل هؤلاء الذين جاؤوا متعطشين لمؤلّفها!

***

(35)

في مساء اليوم التالي كان موعدها مع جمهور الأدباء والمثقفين الذين غصت بهم الصالة التي قسمت قسمة ضيزى إلى جزأين غير متساوين مفصول بينهما بحاجز، وقد استأثر الرجال بنصيب الأسد من المساحة والمقاعد. اعتلت المنصة وجلست إلى جوار عريف الحفل الذي بدأ في التعريف بها، وبالموضوع الذي ستتحدث عنه، لكنها فوجئت بمن يقطع على العريف حديثه، وعلى المنصتين إنصاتهم، ويوجه كلامه لها:

– انزلي يا امرأة.. لا تجلسي أمام الرجال. اذهبي إلى قسم النساء!.

بدأ اللغط يزداد والأصوات تتعالى ما بين مؤيد للمحتسب ومعارض له، حتى تدخَّل بعض المنظمين وتحدثوا معه وخرج.. لو لم يخرج لخرجت هي.. هذا ما كان يدور في خلدها، فهي ترى أنها لا تستطيع أن تتحدث إلى أناس لا تراهم، ولا تتصور أن تواجه بالرأي أناسا لا تواجههم حقيقة!.

بدأت محاضرتها وقد زادها هذا الموقف صلابة واقتناعا بأهمية ما ستتحدث عنه.. تحدثت عن تجربتها في الغربة منذ أن كانت طالبة وباحثة، مرورا بعملها الإعلامي في الجامعة وخارجها، ثم عملها عضوة في هيئة التدريس بالجامعة.. وتحدثت عن الحرية الشخصية التي

لم تقضِ على الاحترام المتبادل بين الناس؛ بل زادت من تمكنه في وجدانهم. وتحدثت عن انصراف الكل إلى الجد في القول والعمل، واحترام الوقت والمواعيد، وحصر النقاش في لب الموضوع لا في هامشه، وتوجيه النقد إلى ما يتحدث فيه الكاتب أو المحاضر دون التعرض لشخصه؛ مهما بدا غريبا وشاذا في مظهره وقوله..

وبعد أن أنهت محاضرتها بدأت تستمتع إلى مداخلات المستمعين والمستمعات وتعليقاتهم وتعليقاتهن، وتجيب عن تساؤلاتهم وتساؤلاتهن.. لقد سعدت بوجود عدد من المتداخلين من الجمهور الواعي المثقف الذين أثروا المحاضرة، واستبشرت خيرا بأن في المجتمع نماذج مميزة غير الذين أصابوها بالإحباط من قبل!

خرجت من المعرض في حوالي العاشرة، واتجهت إلى منزلها فوجدت زوجها يوسف في البيت ينتظرها.. قالت له معتذرة:

– أنا آسفة يا يوسف لأني مضطرة لتغيير برنامجي اليومي حتى ينتهي المعرض لأنها فرصة نادرة لا تتكرر إلا كل عام.

كان يتصفح الانترنت، ويتابع أخبار المعرض والمحاضرة، ويشاهد مقطعا لـ (يوتيوب) بدا فيه المحتسب وهو يطلب منها مغادرة المنصة إلى حيث قسم النساء، ولذا فاجأها برده:

= وهل كنتِ مضطرة أيضا لمخالفة المحتسبين؟!.. هل كان من الضروري أن تكوني في مواجهة الرجال وأنتِ تلقين محاضرتك؟!

يوسف لم يكن مقتنعا بكلام المحتسب وتصرفه، لكنه ضد الخروج على الأنظمة، ولا يريد أن تصبح زوجته مجالا لحديث المجتمع..

في الغد كان خبر اعتراض المحتسب وصورته وهو يطلب من الدكتورة عبير مغادرة المنصة تتصدران أي تغطية صحفية لمحاضرة عبير، بل لعله طغى على المحاضرة نفسها ومداخلاتها!.

***

عرفت عبير من بعض زميلاتها أن بعض المدعوين لحضور فعاليات معرض الكتاب يعقدون كل ليلة في مقر إقامتهم بأحد الفنادق الكبرى ندوات مفتوحة؛ يتناولون فيها محاور ثقافية وفكرية منوعة، وقد حرصت على أن تحضر ولو جانبا من هذه المداولات؛ خاصة بعد أن علمت أن بعض الأسماء اللامعة من داخل المملكة وخارجها موجودة في هذه اللقاءات..

اغتنمت ليلة الخميس للذهاب إلى الفندق بعد خروجها من المعرض لأنها لو تأخرت في السهر فأمامها متسع من الوقت في صباح الغد لأخذ قسط وافر من النوم.. هناك وجدت صالة الفندق وقد تحولت إلى ندوة عامة. استمعت إلى الكثير من المحاورات والمداولات، وتداخلت مع العديد من المفكرين والمثقفين، و لم يقطع اهتمام المجتمعين وحديثهم إلا عدد من المحتسبين يقفون قريبا منهم!.. بعد أن استمعوا إلى شيء من حوارهم ونقاشهم؛ تقدم أحدهم يعظ المجتمعين وينصحهم بأن ما يفعلونه مخالف للدين أولا، ثم لأعراف المجتمع

وتقاليده الذي لم يعتد الاختلاط، وأن هؤلاء المثقفين هم صفوة المجتمع وقدوته وعليهم أن يكونوا أهلا لهذه المكانة التي يحتلونها، والمنظار الذي ينظر لهم المجتمع من خلاله..

تراكض الغوغائيون بجوالاتهم وآلاتهم لتصوير الحدث وتسجيله، وتسابقوا في بثه على وسائل الاتصال الحديثة والصحافة الإلكترونية!!

بعد هذه الموعظة عادت عبير من الفندق الذي يجتمع فيه ضيوف المعرض وكان يوسف قد أخلد إلى النوم.

استيقظت في التاسعة صباحا، والتقت بيوسف على مائدة الإفطار، وكان واضحا أنه قد استيقظ مبكرا وطالع عددا من الصحف الورقية والإلكترونية، وتتره بين صفحات تويتر والفيسبوك، وقرأ التغطيات الصحفية المصورة لخبر زيارة المحتسبين لفندق المثقفين الذي طغى على كل أخبار المعرض وفعالياته.

قال لها يوسف بلهجة لا تعرف الكياسة: – إلى متى أتحاشى نظرات الأهل والأصدقاء يا عبير وكأني أحد المجرمين؟! إن كانت سمعتك لا تهمك فإنها تهمني!!

ورمى بالصحيفة التي كان يقرأ فيها على سفرة الطعام وغادر المنزل قبل أن يسمع جوابها!..

***

(36)

بعد صلاة العشاء من ليلة الجمعة توقفت سيارة تابعة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمام باب استراحة الأكاديميات.. كان يستقلها – إضافة إلى السائق – شاب نحيل الجسم ذو لحية سوداء وعارضين خفيفين..

أطلق السائق منبه السيارة بناء على تعليمات الشاب الذي احتل المقعد المجاور له، فخرج حارس الاستراحة من غرفته، ووقف مذعورا أمام باب السيارة الذي يستند إليه الشاب!

سأله عن مالك الاستراحة، ومن استأجرها؟ ومن يأتيها؟ ومتى؟ وسأله عن كفيله فأخبره بأنه صاحب الاستراحة، وأن لديه مكتبا عقاريا في شارع لا يبعد كثيرا عن موقع الاستراحة، وزوده برقم هاتفه الجوال.. ثم طلب منه بطاقة إقامته.

وأخذ يتمتم وهو يقرأ اسمه وجنسيته منها، ويتفرس في وجهه:

– مجيب الرحمن.. بنجالي.. اسم الكفيل....

ثم أخرج ورقة من جيبه كتب فيها اسم الكفيل، ورقم هاتفه.. ومد يده بالبطاقة للحارس الذي تناولها بيد ترتجف، و لم

يتمكن من التقاطها قبل أن تسقط على الأرض؛ لأن السيارة كانت قد بدأت في التحرك، وزجاج السيارة بدأ في الارتفاع!

و لم تكد سيارة الهيئة تغادر المكان حتى اتصل الحارس بأبي محمد ليعلمه بالخبر، لكن أبا محمد طمأنه بأن الهيئة غالبا ما تقوم بجولات (روتينية) لمتابعة مناطق الاستراحات، وأن الموضوع لا يستحق ما أصابه من هلع.. ونام مجيب الرحمن قرير العين!

***

وجدت عبير عصر الجمعة أنها في حاجة للاسترخاء بعد هذه الزوبعة، فقررت إلغاء زيارتها هذا اليوم لمعرض الكتاب وتمضية الوقت في النادي/ الاستراحة، واتصلت بإيمان لتسألها إن كانت ترغب في مرافقتها إلى النادي؛ فلما أبدت موافقتها طلبت منها أن تكون على أهبة الاستعداد فهي في طريقها إليها!

حين وصلتا للاستراحة استقبلهما مجيب الرحمن لينقل لهما خبر الهيئة، ولما رأى الارتباك باديا عليهما طمأنهما كما طمأنه أبو محمد من أنه أمر معتاد!

في الوقت نفسه كان مكتب أبي محمد العقاري كالعادة ممتلئا بالجلساء والأصدقاء أكثر من الزبائن، فقد جعل هذا الكهل من مكتبه (ديوانية)، أو مجلسا لأصحابه وأصدقائه يندر أن تُروى فيه قصة واقعية، أو يطرح فيه موضوع جاد؛ فكل ما يدور فيه من الحكايات هي طرائف مبتذلة ونكات ساقطة، وقصص لزواجات

المسيار والمسفار. وكانت الضحكات والقهقهات لا تتوقف إلا عند حضور زائر غريب أو باحث عن عقار أو عارض له..

دخل (أبو عبد المحسن) مكتب أبي محمد وقد اكتمل عقد الشلة، وبعد أن أخذ مكانه وخفتت الأصوات استأذن صاحبَ المكتب في كلمة خاصة، وخرج معه إلى الشارع، وعرّفه بنفسه. قال له إنه عضو الهيئة، وأن لديه معلومات عن أنشطة نسائية مشبوهة تقام في استراحته المؤجرة، وأخذ يسأله عن مستأجر الاستراحة وعمن يرتادها. فأخبره أنها استراحته الخاصة، وأنه أجرها لشاب يدعى (ماجد محمد) منذ حوالي العام، وأن العقد يوشك على الانتهاء فإن كان فيها ما يريب فإن أهم ما لديه هو سمعته وسمعة استراحته ومكتبه. وأكد له أنه على استعداد لعدم تجديد العقد معه؛ بل فسخه حالا..

سأل أبو عبد المحسن أبا محمد إن كان بالإمكان أن يقابل المستأجر عنده حين يكون مكتبه خاليا من الناس. فأجابه بأنه عادة ما يغلق مكتبه عند النداء لصلاة العشاء، ولكن بإمكانه الترتيب مع المستأجر لمقابلته في مكتبه بعد الصلاة هذه الليلة. قال أبو عبد المحسن محاولا تهدئة أبي محمد:

– هذا أفضل من طلبه في مركز الهيئة ومساءلته هناك!

عاد أبو محمد إلى رفاقه وقد لاحظوا هذا الغريب الذي أخذه إلى خارج المكتب، وإلى الحديث الذي دار بينهما لبضع دقائق.. كان أبو محمد مهموما بهذا الحدث الجلل؛ لكن الذي شغله أكثر هو كيف

سيرضي فضول شلته فلن يتركوه حتى يخبرهم بالتفصيل الممل عن هذا الزائر وما مهمته. وإن لم يخبرهم – ولو كذبا – فإنهم سيلفقون حكاية ربما تكون أكثر سوءا من الحقيقة!

ألف أبو محمد قصة مفادها أن هذا طالب في كلية الشريعة يبحث عن مسجد في هذا الحي ليكون له إماما، وانتهت الحكاية بسلام، وعاد القوم إلى الهرج والمرج، لكنه لم يكن معهم فقد كان مشغولا بأم صالح وشلتها، وماذا يمكن أن تكون الهيئة قد لاحظت؟!

نودي لصلاة المغرب، وانصرف أصحاب أبي محمد؛ وقبل أن يخرج للصلاة تناول هاتفه الجوال بعد أن أغلق على نفسه المكتب ليتصل بأم صالح:

– مساء الخير يا أم صالح. أتعلمين أن الهيئة تتحرى عنكم؟ ماذا لديكم؟

= أخبرني الحارس أنهم حضروا للاستراحة ليلة البارحة و لم يكن بها أحد.. ماذا يريدون؟!..

– لا بد أنهم لاحظوا ما يستدعي الحضور.. الهيئة لا يأتون عبثا!

= نحن في حالنا كما تعرفنا يا أبا محمد. ليس لدينا ما يغضب الله، ولا ما نخجل منه!

– أدري – والله – يا أم صالح. لكن الهيئة إذا كان عندهم شك فلا ينهون تحرياتهم إلا إذا تأكدوا من كل شيء.. المهم قولي لابنك ماجد أن يأتي إليّ في مكتبي بعد صلاة العشاء ليقابل عضو الهيئة

وسأنهي الموضوع إن شاء الله.. أنا متأكد أن هناك سوء فهم، أو لبسا وسيزول إن شاء الله!.

= وماذا يريد من ابني ماجد؟

– أليس عقد الإيجار باسمه؟ أليس هو المستأجر؟!

= سآتي أنا وماجد بعد صلاة العشاء إن شاء الله.

– حسن ما تفعلين.. هؤلاء لهم احترامهم وتقديرهم.. تأتيهم بلاغات ولا بد أن يتأكدوا منها، ولا بد أن نتعاون معهم من أجل مجتمعنا وأمننا..

***

(37)

التقى أبو عبد المحسن وأبو محمد في مكتب الأخير بعد صلاة العشاء مباشرة، و لم يمر سوى بضع دقائق حتى دخل ماجد؛ الشـــاب الذي لم يتجاوز السادسة عشرة ومن خلفه أمه – أم صالح – وما هو إلا أن سأل أبو عبد المحسن ماجدا:

– أنت الذي استأجرت من أبي محمد استراحته؟

حتى خرجت أم صالح عن صمتها، وقالت:

= لا أنا التي استأجرت.

– يا خالة اتركي ولدك يجيب؟

= لأني أنا التي استأجرت.. لكن ماذا نفعل أمام المكاتب العقارية التي ترفض التأجير لغير الرجال؟! ولدي هذا الذي أمامك ما له أي علاقة في الاستراحة. نحن مجموعة من النساء أردنا أن نرفه عن أنفسنا فبحثنا عن استراحة نقضي فيها وقتنا، وما استطعنا أن نستأجرها بأنفســـنا. الكل رفض أن يؤجر إلا رجلا. وكل النساء اللواتي معي رفضن حتى أن يفاتحن أولياء أمورهن في الموضوع.

– لكن العقد باسمه، ولذا فهو المسؤول.

= يا شيخ أحسن الله عملك.. ولدي هذا قاصر، وأنا ولية أمره. أنا عندي صك ولاية عليه وعلى إخوانه القُصّر من يوم أن توفي والـــده رحمه الله.

– القاصر ما يستأجر!

وكأنما تنبهت إلى أن الرجل ليس لديه ما يدينـــها بـــه ولا زميلاتها، ولذا يريد أن يوجد مشكلة من تأجير الاســـتراحة لمـــن لا يستغلها! فحاولت أن يكون الحوار في أس المشكلة، فوجهت إليـــه السؤال التالي ولكن بلهجة أخف حدة:

= المهم هل لاحظتم علينا ما يدعوكم إلى متابعتنا؟.. نحن نحتـــرمكم ونقدركم، لكن إذا وصلت الأمور إلى ملاحقتنا وتشويه سمعتنا بـــين الجيران، وفي الحارة فلن نسكت أبدا..!.

أدرك أبو عبد المحسن أنه قد تورط مع امرأة لا طاقـــة لـــه بمجابتها؛ خاصة أنه لا يمتلك دليلا ماديا يدين أصحاب الاستراحة.. ولذا حاول إنهاء الموضوع بسلام، و لم تتركه في ســـبيله إلا بعـــد أن اعترف أن الهيئة لم تلحظ ما يثير الشك، وأنهـــم ربمـــا أخطـــؤوا في العنوان!.

هنا عاد الهدوء ليسود المكان، ورأى أبو عبـــد المحســـن أن يواصل تحرياته لكن بلطف، فسأل:

– لدينا معلومات أن هذه الاستراحة لمدرسات في الجامعة. صحيح؟

= صحيح يا شيخ.. هذه استراحة لمجموعة من مدرسات في الجامعة، يجتمعن فيها ويقمن فيها مناسباتهن الخاصة، وأنا أخدمهن، وعنـــدما

عجزن عن استئجار استراحة باسم واحـــدة منـــهن تبرعـــت لهـــن باستئجارها باسم ولدي، ولولا معرفتي بهن ما ضـــحيت بســـمعتي واسمي.

– الدكتورة عبير معكم؟

= نعم. هل تعرفها؟

– أكيد.. هل هناك من لا يعرفها؟!

أبو محمد استغل الفرصة لتلطيف الجو وقال:

– نعم المرأة أم صالح!. والله ما سمعنا ولا رأينا منها إلا كل خير..

والتفت إلى أبي عبد المحسن وقال له :

– هل تعلم أنها خطابة يا شيخ؟ إن عزمت على الزواج فما عليك إلا أن تخبرها!

التفتت أم صالح بخجل مصطنع وقالت:

= لا تصدقه يا شيخ. أنا أعرف (الأجاويد) وإذا وجـــدت الرجـــل الكفؤ ذكرته لهم احتسابا.. أنا أحتسب في هذا العمل لوجه الله كما تحتسب يا شيخ!

مسح أبو عبد المحسن لحيته بيده وقال:

– أثابكِ الله. إن تبين لي من يريد الزواج أخذت رقم هاتفك من أبي محمد.

هنا مدت يدها إلى حقيبتها، وأخرجت منه بطاقة تعريفية ناولتها إياه، وقالت:

= تفضل يا شيخ. ما عليك من أبي محمد.. هذا رقم هاتفي.. أنـــا في خدمتك أنت ومن يعز عليك..

وهنا انفض الاجتماع وأغلق أبو محمد مكتبه وهو يرجو ألا يكون قد لحظه أحد الفضوليين من رفاقه!!

***

خرجت أم صالح مبتهجة بما حققته من إنجاز، فالتخلص من ملاحقة رجال الهيئة في نظرها ليس بالأمر الهين حـــتى و لم لم يكـــن لديها وزميلاتها ما يريب، وزاد من ابتهاجها اتصال أبي محمد يهنئهـــا على جرأتها، وعلى قدرتها على الإقناع.. قال لها:

– ما شاء الله يا أم صالح. أشهد أنك بعشرة من الرجال!

فردت بكل زهو:

= تحسب أبي سهلة؟! ما رأيك لو اشتغلت محامية؟!

وبعد أن أنهت مكالمتها مع أبي محمد أجرت اتصالا مع أُولَـــى مـــن يعنيهن الأمر – مع الدكتورة عبير – لتطمئنها على انتهاء الموضوع.

– مساء الخير دكتورة.. أما زلتِ في الاستراحة؟

= أنا وإيمان منذ العصر فيها، والآن سنخرج.

– أنا قريبة من الاستراحة.. إذا كنتِ غير مستعجلة فاصبري قلـــيلا حتى آتي وأزودك بالأخبار.. وإن كنت مستعجلة فاذهبي واتركـــي إيمان.. أنا أمر عليها وأوصلها معي..

وصلت أم صالح للاستراحة، وأخذت تتحدث عن إنجازاتها وبطولاتها في مواجهة عضو الهيئة حتى أزالت كل المخاوف من قلـــب عـــبير ورأسها..

***

(38)

في صباح اليوم التالي – يوم السبت – لاحظت الـــدكتورة عبير منذ أن دخلت الجامعة أن نظرات زميلاتها لها تحمل الكثير مـــن الريبة، كما لاحظت شيئا من الهمسات بينهن لم تجد لها تفســـيرا إلا بعد أن دخلت إيمان إلى مكتبها وهي تميّز من الغيظ:

– تصدقين يا عبير أن خبر الهيئة انتشر في الجامعة كالنار في الهشيم.. كل الزميلات اليوم يتحدثن عن مداهمة الهيئة لاستراحتنا!

= حسبنا الله ونعم الوكيل. ما أحب هذا المجتمع لترويج الإشـــاعات والأخبار الملفقة! هذا ونحن نعمل باجتهاد وإخلاص من أجله، ونقوم بما لا تقدر عليه هيئات ومؤسسات..

– الذي يزعجني هو كيف وصل الخبر إلى زميلاتنا الـــلاتي لم يكـــن موجودات في الاستراحة، وما رأين شيئا مما يروينه.

= الخبر أصبح متداولا بين السائقين فلا تعجبي إن وصل للزميلات؟! تصوري أن سائقنا يسألني: ماذا تريد الهيئة؟!

– حتى سائقنا سأل خالتي ونحن عائدتان من الاستراحة.. المهم مـــاذا نفعل الآن يا عبير؟ كيف ندافع عن أنفسنا؟ كيف نواجه زميلاتنـــا وطالباتنا؟ كيف نشرح لهن أنهن واهمات، وأن الذي يقلنه ما حصل.

= الدفاع يا إيمان دليل الضعف. لن نتحدث في الموضوع مطلقا. دعيهن يقلن ما يردن لأنهن لو لم يجدن حكاية يتسلين بها، لألفن من عندهن.. لا تهتمي بهن أبدا..

– الذي يهمني هو زوجي. أخشى أن يصله الخبر، ولذلك سوف أقول له قبل أن يعلم من غيري. تعرفين أن أزواجنا يبحثون عن سبب لتكبيلنا داخل بيوتنا.. ألن تقولي لزوجك يا عبير؟

= زوجي سلبي، ولا أعتقد أنه يضيف ما ينفع في هذه القضية، لذلك لن أقول له شيئا إلا إذا سألني!

***

حين عادت عبير إلى بيتها ظهرا لم تتناول – كعادتها – شيئا للغداء، و لم تقدر على فتح فمها بالتحية لزوجها كالمعتاد، واكتفت بأن قالت إنها مجهدة وتحتاج للراحة في غرفتها. وحين دخلت غرفتها فتحت حاسبها الآلي لتتصفح الأخبار فهالها ما وجدته منشورا في الصحف الإلكترونية، وفي مواقع الفيسبوك وتويتر. لقد كانت مجهدة، لكنها بعد هذه القراءة السريعة لما نشر في المواقع الإلكترونية أصبحت كالجثة الهامدة!..

خرج يوسف من المنزل مغضبا، واتجه مسرعا ليدرك أقرب مطعم للوجبات السريعة قبل الإغلاق لصلاة العصر، وتناول ما سد به رمقه، وخرج ليؤدي صلاة العصر في المسجد المجاور للمطعم.. أنهى الصلاة، واستمع لموعظة الإمام المعتادة في هذا الوقت من كل يوم، وكانت من كتاب (رياض الصالحين):

"عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يستر عبدٌ عبدا إلا ستره الله يوم القيامة. رواه مسلم".

خرج من المسجد وهو يدعو ربه أن يستر عليه وعلى إخوانه المسلمين! ونظر في ساعته، فوجد معه متسعا من الوقت قبل عيادته المسائية لقدح من القهوة الإمريكية.. أوقف سيارته أمام أحد المقاهي الشهيرة، وترجل من السيارة مصطحبا معه جهاز حاسبه الآلي (اللابتوب)، وبدأ في تصفح المواقع الإلكترونية راجيا أن تكون هذه المواقع قد وجدت أخبارا تشغلها عن تتبع أخبار زوجته في معرض الكتاب!

لم يستطع الجمع بين قراءة الخبر الذي أمامه على شاشة (اللابتوب) والإمساك بقدح القهوة، فوضعه بيد ترتجف على الطاولة، وسمّر عينيه في خبر عاجل كتب باللون الأحمر إمعانا في الإثارة: "مداهمة الهيئة لاستراحة أكاديميات".. وفي تفاصيل الخبر: "داهمت فرقة من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليلة الجمعة الماضية استراحة تتبع للدكتورة ع. ع....." ولم يكمل الخبر ولا القهوة، وحمل جهازه في يده وانطلق خارج المقهى، حتى إن العامل الفلبيني لم يتمكن من اللحاق به لأخذ حسابه!

وبدلا من أن يتجه للعيادة التي حان وقتها؛ اتجه مباشرة إلى منزله، فوجد عبير ما زالت مستلقية على فراشها، فابتدرها بقوله ساخرا:

- الدكتورة ع. ع. ما زالت نائمة والصحافة ليس لها شغل سواها؟!

هبت من فراشها كمن لدغتها أفعى، ووقفت تتأهب لسماع المزيد من سيء القول، و لم يخب ظنها، فلم يترك كلمة سيئة يحفظها في قاموسه إلا رماها بها، ولا شتيمة بذيئة إلا كالها لها، و لم يترك لهـــا المجال حتى للدفاع عن نفسها أو تبيان وجهة نظرها!..

وخرجت عبير من طورها واهالت عليه بصـــنوف الكـــلام السيئ الذي لم تقل مثله يوما ما لأي مخلوق، وأنهت كلامها بأنهـــا خارجة إلى بيت أهلها في انتظار ورقة طلاقها، فرجل بهذه الخسة لا يمكن العيش معه ساعة واحدة!!

***

(39)

علمت أم صالح من إيمان خبر خلاف عبير مع زوجها، فاتصلت بها من فورها لتستطلع الأمر وتهدئ من روعها. ثم اتصلت بأبي محمد تسأله إن كان يحتفظ برقم هاتف أبي عبد المحسن، فتذكر أنه أعطاه إياه ليبلغه عن أي خلل يراه في الحارة سواء أكان في استراحته أم في غيرها من الاستراحات أو البيوت.. بحث أبو محمد عن رقم الهاتف، وأرسله في رسالة جوال إلى أم صالح..

سارعت أم صالح من فورها للاتصال بأبي عبد المحسن لإبلاغه بالكارثة التي تسبب فيها بتسرعه وهجومه على الاستراحة دون أن يكون لديه البينة والدليل والمسوغ، وأعلمته بأن الدكتور يوسف عنَّف زوجته لما تقوم به هي وزميلاتها في الاستراحة بناء على ما نمى إليه من مداهمة الهيئة للاستراحة، لأن مداهمة الهيئة تعني عند الشرفاء وجود جريمة أو شبهة على الأقل، وأن الناس الذين ليس في سلوكهم ما يشين يثقون في الهيئة ثقة عمياء، ويعتقدون أنها لا تهجم إلا على الأوكار الفاسدة، وأن هذا المجتمع الفاضل يؤمن بمقولة: "لا دخان من غير نار"!

أخذ يفكر أبو عبد المحسن في كم مداهمة شارك فيها و لم تسفر عما يريب، وكم متهم أثبت التحقيق براءته، وهاهو الواقع

يثبت له سوء ما ارتكبه من حماقة. لقد أخذ يفكر في أن الاحتساب لا يعني العنف، وأن الأمر بالمعروف يمكن أن يتم باللين، وأن المنكر يمكن إزالته بغير العدوان.. أخذ يفكر في شعور المتهم بالظلم الواقع عليه، وعلى انكسار نفسه والقضاء على آدميته، وأن الثقة في شخص ما لا تعني أخذ ما يقوله بالقبول دون تفكير، وأن المُبَلِّغ مهما كانت الثقة فيه؛ فقد يكون متوهما أو مخطئا أو ظانا، وأن بعض الظن إثم. وهاهي أم صالح تؤكد له خطأ ما اقترف.

الواجب الآن يحتم عليه مقابلة الدكتور يوسف لإبلاغه بحقيقة ما حدث وأن الموضوع لا يعدو التحري، وأن الهيئة لم تداهم المكان و لم تقبض على أحد و لم تحقق معه، وإن تطلب الأمر التقى بذوي الدكتورة عبير واعتذر لهم عما سببه تصرفه الأهوج مهما لاقى من غضب الأسرتين، أو مطالبتهما بحقهما الشرعي والقانوني!..

***

وضعت الممرضة فنجان القهوة على مكتب الدكتور يوسف، بعد أن انتهى من فحص آخر مريض، وقبل أن يتناول أول رشفة منه قالت له الممرضة:

– في الخارج رجل يرغب في مقابلتك. لم يقل من هو ولا ماذا يريد!

= اذهبي ودعيه ينتظر.. سأخرج إليه بعد قليل..

لم يكن هذا الزائر الغريب إلا أبا عبد المحسن الذي اعتذر عن مجيئه دون موعد نظرا لأهمية الموضوع الذي جاء من أجله!

بدأ أبو عبد المحسن حديثه معرفا بنفسه بأنه عضو هيئة الأمر بالمعروف، فامتعض وجه الدكتور يوسف فورا، وبان فيه عدم الارتياح، وقبل أن يبدأ حديثه في الموضوع طلب منه الدكتور يوسف بطاقة عمله.. ارتبك أبو عبد المحسن و لم يدرِ بِمَ يجيب، فلم يتعود من أحد أن يسأله عن هويته أو بطاقته، فكان يظن أن سيماء الصلاح التي تبدو عليه من لحية كثيفة و(غترة) بلا (عقال) كافية لأخذ ما يقوله بالقبول دون تشكيك، فاضطر للاعتراف بأنه متعاون مع الهيئة وليس موظفا فيها، وأن بطاقته الشخصية ليست معه.

قال له يوسف:

– تفضل. قل ماذا لديك.

= تلقينا بلاغا عن وجود نشاطات مريبة في إحدى الاستراحات بشرق الرياض، واتجهنا حسب العنوان الذي زودنا به إلى الاستراحة الخاصة بحرمكم وصديقاتها.. و لم نجد غير الحارس، وسألناه الأسئلة المعتادة: من صاحب الاستراحة؟ ومن مستأجرها؟ ومتى يأتي أصحابها؟ ولا أدري كيف انتشر الخبر بهذه الصورة المشوهة. الناس حريصون يا دكتور على تشويه سمعة الناس وسمعة الهيئة!

– انتهيت؟!. والله ما شوه سمعة الهيئة والناس إلا أنتم الذين تسمون أنفسكم (متعاونين) وأنتم أبعد ما تكونون عن التعاون.. وتتظاهرون بالدين وأنتم أبعد ما تكونون عن تعاليمه.. الدين يأمر بالستر وأنتم تفضحون. والدين ينهى عن التجسس وأنتم تتجسسون. ألا تعلم أن

الرئيس العام للهيئات منع المتعاونين لهذه الأسباب؟.. لأنكم شوهتم عمل الهيئة، وأسأتم لها. الآن ماذا تريد؟

= أولا أنا أعتذر خاصة بعد ما علمت بما حصل بينك وبين زوجتك..

– أبناء (الحمايل) حين يسمعون أية كلمة سيئة يخرجون من طورهم؛ خاصة إذا وصلت للعرض والسمعة والشرف. والناس تصدق أن الهيئة لا تغلط على أحد، وهذا صحيح.. ما يغلط إلا أمثالكم من المتهورين! الآن تفضل لو سمحت.. لا أريد منك شيئا إلا أن يغير هذا الموقف من تعاملك مع الشرفاء مستقبلا.. مع السلامة!

= ألا تريد أن أتصل بأهل زوجتك، وأعتذر منهم، وأبين لهم ما حصل من لبس؟!

– أتريد أن تعلمهم أن ابنتهم شريفة عفيفة؟. لا أنت ولا أمثالك من يشوهون سمعتنا وسمعة محارمنا، ولا من يمنحوننا شهادة البراءة. أنا كما قلت لك متنازل عن حقي لله، لكني لا أضمن أن يطالب أهل زوجتي بحقهم.. أعطني رقم جوالك ومتى ما أردتك اتصلت بك!

***

لم يكن يوسف يجهل سلوك زوجته ولا يشك فيها، ولا يجهل زميلاتها وكونهن من فضليات هذا المجتمع، فما الذي جعله يستعجل ويصدق صحفا لا هم لها إلا الانتشار ولو على حساب سمعة المواطنين الشرفاء والأجهزة الحكومية العاملة بكل إخلاص؟ ولِمَ لَمْ يناقش زوجته ويفهم منها ما الذي جرى؟ أليس من الأولى أن

يصب جام غضبه على من حاول تشويه سمعتها وسمعة زميلاتها بـــدلا من تصرفه الأرعن؟!

ما عليه الآن سوى التوجه إلى مترل أهل زوجته لطلب الغفران منهم ومن زوجته التي أساء إليها!!

***

(40)

دخل فيصل بيت أسرته مهرولا، وقد احمرت وجنتاه كجمرتين متقدتين، وما لبث أن أخذ ينادي شقيقته عبير، وقبل أن تجيب كان الجرس الخارجي للبيت يقرع!.. هدأ من روعه وفتح الباب ليجد أمامه الدكتور يوسف.. سلم عليه وحاول أن يخفي مشاعر الغضب التي كست وجهه، وأخذه إلى صالون المنزل، وطلب من الخادمة أن تحضر القهوة والشاي.

لا يخفى على يوسف – كما لا يخفى على أحد – أن فيصل من النوع الأهوج الذي لا يمكن لأحد أن يتنبأ بما يفعل عندما يغضب، ولذلك كان يوسف حذرا في الحديث معه.. بدأ الدقائق الأولى من اللقاء بالسؤال عن الأحوال والعمل والأسرة، ولم يتطرق إلى موضوع الساعة الذي جاء من أجله؛ بل حاول ألا يكون البادئ في فتح أي حوار، وانتظر ليبدأ فيصل بالحديث؛ فانتقاء الجواب المناسب أيسر من فتح باب للحديث لا يدري إلى أين يوصل!.. لكن فيصلا ظل صامتا وكأنه ينتظر يوسف ليبدأ الحديث..

سأل عن عبير إن كانت موجودة؟! فكان السؤال تمهيدا لانطلاقة فيصل:

– ما الذي حصل بينكما؟ وهل صحيح ما سمعته عن مداهمة الهيئة للاستراحة؟

= اسمع يا فيصل. أنت أكثر خبرة مني بالعلاقة الزوجية لأنك أقدم زواجا، لكني أدرى منك بشؤون الحياة بحكم أني أكبر سنا. إياك أن تغضب.. وإن غضبت غصبا عنك فلا تتخذ أي قرار وأنت غضبان.. وإذا سمعت بأذنك، ورأيت بعينك؛ فلا يمنعك هذا من التحقق بنفسك! تعرف يا فيصل أن الشرف أغلى ما في الحياة، وأن أية كلمة تقال فيه تسبب لنا عمى ألوان.. تجعلنا لا نرى.. والله ما عندي ذرة شك في عبير ولا سلوكها ولا زميلاتها اللاتي اختارتهن. ولدى بعض أفراد الهيئة – خاصة المتعاونين – تصرفات هوجاء!.. كل ما في الأمر أنه جاءهم بلاغ عن استراحة مشبوهة، وأخطؤوا في العنوان، فوقفوا على استراحة عبير، وسألوا الحارس لمن هي؟ ومن صاحبها؟ وغادروا، وقال الناس إنها مداهمة، وتكلموا بما لا يليق ولا يصح!..

أخذ فيصل يرسل إلى وجه يوسف نظرات حادة يتطاير منهما الشرر، وبدا تأثير هذه النظرات على قلب يوسف الذي بدأ في الخفقان، إلى أن قال فيصل:

– يا دكتور.. ما دمت تعرف هذه المعلومة، ومتأكدا من براءة شقيقتي فلِمَ تطردها؟ جاءت ودموعها على خدها؛ ليس لأنك طردتها، بل لأنك اتهمتها بالباطل..

= ألم أقل لك قبل قليل: لا تغضب، ولا تتخذ قرارا في حالة غضب!. هذا الذي حصل معي تماما.. قرأت أخبار الصحف

الإلكترونية وأخذها بالقبول.. لم أتأكد، و لم أناقش.. بصراحة تهورت.. ثم إني ما طردتها، هي التي تركت البيت!..

= والآن ماذا تريد أن تعمل؟ أو ماذا تريد أن نعمل؟

- الآن جئت كي أعتذر منك أولا.. وأعتذر من زوجتي وآخذها.

= بكل هذه البساطة يا دكتور؟.. بالأمس تتهمها في شرفها، وتخرجها عن طورها، واليوم تأتي لتأخذها؟ أما تعلم أني دخلت البيت قبل وصولك بثوان، و لم أرها و لم أسمع منها بعد؟! والحمد لله أني رأيتك وسمعت منك قبل أن أراها.. يوم أن قالت لي أمي قبل قليل جئت كالمجنون لأعرف القصة، و لم أصدق أن الحكاية تصل إلى هذا الحد لولا أنها صحيحة، أو على الأقل بعضها صحيح!..

– استعذ بالله من الشيطان يا فيصل.. كلنا يعمينا إبليس عن الحقيقة.. وإن كنت ترى أن الوقت غير مناسب لمقابلة عبير الآن فأتركُها لوقت ثان، وسأعتمد على الله ثم عليك في نقل اعتذاري لها وللوالدة.. أستأذن الآن!

لم يرُدّ فيصل لأن الغضب ألجم لسانه، و لم يصدق يوسف أنه خرج بسلام، فما عمله يستحق العقاب من أكثر الناس سماحة؛ فكيف بفيصل المشهود له منذ طفولته بالتسرع والاندفاع والسلوك العدواني، ولذلك كتم عنه أنه يعرف المتعاون مع الهيئة الذي قام بمهاجمة الاستراحة، وأنه قد زاره في مكتبه، وأبدى استعداده للمجيء إلى هنا لشرح الموضوع برمته، كما لم يبين له أنه يحتفظ برقم هاتفه الجوال..

حينما ركب سيارته كان أول ما عمله أن اتصل بأبي عبد المحسن ليعلمه بأنه لا ضرورة للالتقاء بأسرة زوجته وخصوصا شقيق زوجته فيصل.

أما فيصل فقد سري عنه؛ فشرف أخته الذي كان يراه متصدعا بدا له – كما عرفه – سدا منيعا لا يستطيع أحد اختراقه. أخبر أخته بمجيء يوسف واعتذاره منها، ورغبته في عودتها إلى بيت الزوجية. قالت له :

– دعني أفكر!

ورد غاضبا:

= اسمعي.. سيان عندي أن تعودي إلى يوسف أو لا تعودي، ليس هذا ما يقلقني.. أنا أفكر الآن في هذا الذي شوه سمعتنا بين خلق الله.. أين أجده؟!

***

لم يكن فيصل صادقا حين أظهر عدم الاكتراث بعدم عودة شقيقته لزوجها، فما إن عاد يوسف مرة أخرى لفيصل وأبدى ندمه وصرح برغبته في عودة زوجته إليه إلا ونقل فيصل رغبة زوجها إليها مبديا تأييده طلبَه.. ولما لاحظ أنها ما تزال مترددة وتطلب وقتا للتفكير أعلمها صراحة باستيائه من بقائها على هذا الوضع، وأن الطلاق مما يعيب الفتاة وأهلها!.

وعندما لجأت إلى أمها لتساعدها على إلحاح زوجها، وملاحقة أخيها وجدت أمها أكثر صرامة في رغبتها في العودة لزوجها. قالت لها:

- يا بنتي..ارجعي لزوجك.. البنت مالها إلا زوجها.. والرجل مستعد لأن (يرضيك) بما تريدين!!

ما ذا تريدين يا عبير؟!

سألت نفسها، وبدأت تفكر في الإجابة بصوت مسموع:

أريد منه أن يبين لي كيف سيغير من معاملته، وكيف سيتخلص من أغلال المجتمع ونظرة الناس وكلامهم! أريد منه أن يحترمني ويقدرني؛ ليس لأني أستاذة جامعية وباحثة ومؤلفة؛ بل لأني زوجته وقبل ذلك لأني إنسانة!. أريد منه أن يثق فيّ لأني أحرص على سمعتي منه، ومن أي مخلوق آخر!..

هذا ما أريد لا أكثر!..

حين لم تفلح أمها ولا أخوها في إقناعها بالعودة إليه اضطر يوسف للاتصال بها هاتفيا، وأبدى استعداده لتقديم (الترضية) التي تطلبها!

لم تعرف ما الذي يقصده بقوله (ترضية)؛ هذه الكلمة التي سمعتها مرة من أمها، وسمعتها اليوم من يوسف فراحت لأمها تسألها ماذا يقصد بها؟! ولما بينت لها أنه يقصد مبلغا ماليا أو مجوهرات يدفعها لترضيتها، وليؤكد لها رغبته في عودتها إليه؛ أدركت البون

الشاسع بينها وبينه، وبينها وبين أهلها ومجتمعها.. أدركت أن الجهل المحفور في خلاياه لا يمكنه التخلص منه أبدا!..

هي لا تماطل في العودة بهدف ابتزاز زوجها كما تظن أمها وأخوها، وكما يظن هو! فهي أبعد الناس تفكيرا في المال. ولو كان يهمها المال لغضبت منه حين اضطرها لشراء سيارة من حسابها، واستقدام سائق تدفع له أجره من مرتبها كل شهر..

أيقنت أن لا أحد سيفهمها في مجتمع يحبس العقل في زنزانة، فطلبت ورقة طلاقها بإصرار لم يعرفه أحد عنها من قبل!!

***

(41)

إذا اجتمع الليل والخلوة وجـــدت الأفكـــار والهـــواجس والتصورات فرصتها للهجوم على الـــذاكرة. ولا خيـــار للمـــرء في استدعاء ما يريد منها، أو دفع ما لا يريد!

وجدت عبير نفسها أسيرة لليل وخلوة، ومر بذاكرتها شريط طويل لمسيرة حياة، يغلب فيها السار على المؤلم، ويطغى الحسن على القبيح.. وتوقفت فجأة عند محطة محمد نذير.. لقد تعاهدا أن يبقـــى ما بينهما من حب خالدا ما حييا.. وتساءلت: أين ما تعاهدا عليه؟! وتذكرت مثلا شعبيا من الأمثال التي أغرمت أمها بترديدها: "البعيد عن العين بعيد عن القلب"! ورددت في نفسها:

- صدقت أمي.. وصدق المثل!

لقد اختفى نذير من حياتها بالتدريج مثلما تختفي أنوار المدينة الساحلية حين يغادرها المركب موغلا في اليم، أو كما يختفي البـــدر حينما تداهمه الغيوم!..

وبدا لها أن حبها لمحمد نذير ليس وحده الذي اختفى؛ فكل ما أحبته في حياتها لم يبقَ له أثر!!

وأخذت تحدث نفسها:

لقد أحببت طالباتي وعملت الكثير مما في وسعي من أجلهن. فتحت مكتبي لهن، وزرعت فيهن الثقة للتحدث إليّ عن كل ما يعن لهن، وعن مشكلاتهن في الجامعة وخارجها، فلم يتقدم لي أحد؛ ليس لأنهن لا يملكن ما يقلنه أو أنه لا مشكلات لديهن، بل لأنهن لا يجرؤن على الشكوى من أمهاتهن أو مدرساتهن اللائي زرعن فيهن الخوف والرهبة والتعليمات التي لا تقبل النقض والاعتراض!

وأحببت زميلاتي وحاولت أن أنهض بهن وأغير من قناعاتهن، وأجعل من لقاءاتهن منتديات فكرية وثقافية بدلا من تجمعات القيل والقال، والتنافس في الحلي والملبس والمسكن والمركب والسهرات والحفلات، وكانت النتيجة أن أتعرض لتلفيق التهم، وأصبح هدفا لذوي الغيبة والنميمة!

وأحببت مجتمعي بأبنائه وبناته، وبأمياته ومثقفاته، وفتحت صفحتي في الفيسبوك من أجل أن تكون حضنا دافئا يلجأ إليه المتعبون من الجنسين من مشكلات دراسية واجتماعية وسلوكية، و لم أجد سوى المتطفلين والعابثين والهازئين؛ يستوي في ذلك العامي والمثقف والمراهق والكهل!.

لقد أحببت وطني بترابه ومائه وهوائه بسمائه وقمره ونجومه.بدفئه وصقيعه.. لكن هناك وحشا كاسرا يريد أن يحرمني من حب وطني، ويدفعني دفعا ليبعدني عنه ويجبرني على تركه!

وتوقفتْ قليلا لتفكر في هذا الوحش الذي يحكم سطوته على الناس؟ كل الناس! حتى المثقفين.. حتى العلماء والأطباء والأدباء ليجعلهم يكرهون بعضهم بعضا ويحقدون.. ويتآمرون.. ويكذبون!

ثم عادت تسائل نفسها:

لماذا يحسب الناس للمجتمع أهمية أكثر من حسابهم للدين؟ ولماذا لا يستطيع الناس أن يتصرفوا كما يريدون، لا كما يريد المجتمع؟

لولا سطوة المجتمع هل كان سيحرج أبي من رفض طلب عمي تزويجي بابنه؟ أو يغضب عمي من ابتعاثي للخارج؟

ولولا سطوة المجتمع هل كان يهم أمي أن أبقى بلا زوج؟ أو يهم أخي أن أتزوج من هندي؟

ولولا سطوة المجتمع هل كانت زميلاتي في الجامعة سيكترثن إذ لم أشاركهن الرقص؟

ولولا سطوة المجتمع هل كان زوجي سيقبل هجوم المحتسب على الاستراحة التي اتخذها وزميلاتي مركزا ثقافيا ورياضيا؟!

وعادت تحدث نفسها عن قرارها الذي اتخذته في هذه اللحظة:

– لقد قررت منذ الآن أن أعلن الكفاح بكل ما أوتيت من قوة على هذا الوحش، وعلى أغلاله وقيوده، وأن أمضي قدما في الطريق الذي اخترته لنفسي، وأن أعلن عن رغباتي بكل وضوح..

لقد قررت أن أرفض أن يوجه المجتمع مسيرتي كما يشاء ورغما عني، وألا أسمح له بأن يحول بيني وبين ما أحب فعله مادام صحيحا وغير مناف لديني مهما اعترض المعترضون!..

لقد قررت أن أزيل الأحجار التي تعترض الطريق ولو بسواعدي، وبمفردي، فلعل أحدا يتنبه لما أفعل؛ فتدب في قلبه الغيرة والحمية فيهب لمساعدتي!

***

الفصل الأخير

أقبل فصل الصيف، ووجدت عبير نفسها في حاجة لأن تسيح في أرض الله لتتأمل مخلوقاته وإبداعاته في كونه، ولتستعيد شيئا من طاقتها وحيويتها التي نفد رصيدها منهما.

وقبل أن تشرع في اتخاذ أية خطوة اتضح لها أن جواز سفرها يحتاج إلى تجديد. وسرها أن علمت بالتطورات الأخيرة في إدارة الجوازات بحيث يمكنها – عن طريق الموقع الإلكتروني – حجز موعد لتسليم أوراقها وتَسَلُّمِها في اليوم التالي دون حاجة للصفوف الطويلة وساعات الانتظار المملة. وذهبت بأوراقها في الموعد الذي حجزته مسبقا، لكنها لم تتمكن من تسليمها!..

قيل لها إنه لا بد من حضور ولي أمرها، أو توكيله!.. ولأن ولي أمرها هو زوجها الذي أصبح طليقها، فقد تطلب الأمر الانتظار لحين انتهاء عدتها حتى تتمكن من حذف اسمها من سجله المدني، وإعادته إلى سجل المرحوم والدها!..

أخذت أيام عدتها تسابق أيام الإجازة الصيفية، وحمدت الله أن انتهت العدة وما زال في الإجازة متسع لغسل الهموم، والظفر بما قد يدخل السرور على قلبها وروحها.. ونجحت في إعادة اسمها إلى

سجل والدها، وذهبت إلى كتابة العدل لتوكل أخاها على تجديد جواز سفرها، فقيل لها إنه لا يجوز التوكيل في هذه المسألة، وإن حالتها تحتاج إلى (صك إعالة) ليصبح أخوها هو المسؤول عنها والمتصرف في شؤون حياتها، وعندها هو الذي يجدد جواز سفرها - إن أراد-!

ورضخت لهذا الخيار لأنه لم يكن أمامها سواه.. لكن هذا يعني أن تصارح أخاها بما عقدت عليه العزم فهل تستطيع؟ وهل يقبل؟!..

هل تكذب عليه وتقول له إنها ترغب في أن يكون جواز سفرها صالحا متى احتاجت إليه في رحلة علمية أو مهمة عملية؟ لا.. لم تعتد الكذب، ولن تستعمله مطية أبدا حتى وإن استعمله الجميع؟ حتى وإن أضحى هو الحل الوحيد!!

قالت تحدث نفسها: إذا كنتِ لا تستطيعين يا عبير أن تصارحي أخاك بما نويتِه فحُقَّ لهذا المجتمع أن يحكم قبضته على كل تصرفاتك؟

انتظرت زيارة أخيها اليومية لوالدهما، فعرضت عليه حاجتها لتجديد جواز سفرها بأسلوب أقرب إلى الرجاء منه إلى الطلب، ولكن دون الدخول في التفاصيل:

- فيصل.. جواز سفري انتهى.. حاولت أن أجدده، فقيل: لي لا بد أن يكون عن طريق ولي أمرك. وأنت اليوم ولي أمري!

= حاضر. أنا من لي غير شقيقتي؟! ما المطلوب؟

– تستخرج صك إعالة من المحكمة المختصة، حتى تكون أنت المتصرف في شؤوني، وتستطيع ساعتها أن تجدد جواز سفري!

فيصل يتمتع بذكاء يكون أكثر حدة حينما يتعلق الموضوع بحب الإيذاء وفرض السيطرة والدهاء.. وكما يلمع البرق لمعت في ذهنه فكرة السيطرة على أخته التي لم يجد لها سبيلا من قبل!.. وجد أن هذا هو السبيل لكبح خطوات أخته الجامحة.. قال لها:

= حاضر! وهل لدي أعز من أختي عبير؟! غدا صباحا أستخرج لك صك إعالة!

ولم تصدق عبير ما سمعت.. لم تصدق أنه لم يسألها عن الأسباب الداعية لتجديد الجواز، فقالت:

– حفظك الله لنا يا أخي العزيز!

وفي الغد حصل فيصل من المحكمة على صك إعالة لأخته وأتى به إليها.. وهو يقول:

= هذا صك الإعالة يا عبير.. لكن جواز السفر لن أجدده! متى صار لك زوج فليجدده لك!!

.

.

.

كان الله في عونك يا عبير! قد تتغير أشكال القيود وأحجامها وألوانها، لكن واحدا منها على الأقل سيظل يكبل يديك!!

***

صدر للمؤلف:

- الأصوات العربية وتدريسها لغير الناطقين بها من الراشدين. مكتبة الطالب الجامعي – مكة المكرمة **1985**.
- شاعر هذيل والمتحدث الرسمي باسم القبيلة – دراسة لسيرة أبي ذؤيب الهذلي من خلال شعره. دار مبين للنشر والتوزيع– الرياض **1994**
- مقررات اللغة العربية للمعاهد الثانوية التابعة للمؤسسة العامة للتدريب التقني والمهني بالمملكة العربية السعودية (مؤلف مشارك) **1997**– **1999**
- لكل شاعر حكاية – ملامح من حياة عدد من الشعراء على مر العصور– دار الرمك – جدة **2012**
- مداد من غيوم (ديوان شعر). دار الرمك – جدة **2012**
- أيقونة شعري (ديوان شعر). دار الرمك – جدة **2013**
- حديث الشفق (خواطر) نادي القصيم الأدبي ومؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر – القاهرة **2013**

من سحر المشرق وفن المغرب (من أدب الرحلات) نادي الرياض الأدبي والمركز الثقافي العربي– الدار البيضاء وبيروت **2014**

شمس تأذن بالرحيل (ديوان شعر) نادي الطائف الأدبي ومؤسسة الانتشار العربي – بيروت **2014**

للتواصل مع المؤلف:

s_alghoraiby@hotmail.com